ضياء الدين بن الأثير

بلاغته ومنهجه الأدبي والبلاغي والنقدي

obeikandl.com

obeikandl.com

وقد ثبتت واتضحت من الإيماءات الخاطفة السابقة التى مرّ ذكرها فى العرض السابق السريع صلة ابن الأثير الناقد البلاغى بالأدب عامة، وبأدب عصره خاصة، وينبغى الآن أن أعرض بالتفصيل لأهم آرائه وموضوعاته الأدبية والنقدية والبلاغية، حتى يظهر مقدار تأثره بالسابقين من النقاد والأدباء العرب، وتأثيره فى المتأخرين منهم إن كان له تأثير فى هؤلاء الأدباء والنقاد.

والدارس عندما يدقق النظر والبصر فى آراء ابن الأثير ونظرياته النقدية والبلاغية والأدبية فإنه يراها عبارة عن ثلاثة أجزاء أساسية رئيسية يتصل بعضها ببعض ويتلاحم، ويتداخل بعضها فى بعض كتداخل النقد والبلاغة والأدب فى عصره، الجزء الأول.. نصائح عامة إلى النقاد والأدباء والبلاغيين، والجزء الثانى.. تطبيق عملى لهذه النصائح الأدبية العامة، والجزء الثالث.. دراسة وشرح للمسائل النقدية، والأصول البلاغية، والجذور الأدبية. وهذا التقسيم والتحليل المنطقى يميط اللثام عن هدف ابن الأثير الرئيسى من نقده وبلاغته، ومن البين الواضح أنه كان يوجهها إلى الأدباء والكتاب فى عصره بقصد التأثير فيهم تأثيرا يرضى كبرياءه العلمى فى البلاغة والنقد والأدب وفنون الكتابة.

النصائح الفنية:

ونصائح ابن الأثير الفنية عبارة عن توجيهه الأديب والكاتب والبلاغى بصفة خاصة إلى المواد التى تتكون منها ثقافته الأدبية والعلمية. وأول ما نصح به هو أن يلم الأديب والكاتب بثقافة عصره، وما يدور حوله فى الحياة العامة، وذلك بقوله: " إن الكاتب يحتاج إلى التشبث بكل فن، والنظر فى كل علم، وإرصاد السمع

لمحاورات الناس، فإنه لا يعدم من ذلك فائدة فإن كلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها. فقد تتبعت أقوال الناس فى محاوراتهم فاستفدت بذلك فوائد كثيرة، حتى من أكّار وفلاح وأعجمى من الأعجام الأغتام، ومن يجرى مجراهم. وعلى كل حال فإن صاحب هذه الصناعة، ينبغى أن يعلم ما تقوله النادبة فى المآتم، وماتقوله الماشطة عند جلوة العروس، وما يقوله المنادى فى السوق على السلعة، فدع ما وراء ذلك، وليس فن الكتابة كغيره من فنون العلم، فإن كل علم له حاصر وضابط..."[1] .

وعلة ذلك وسببه عند صاحبنا ابن الأثير: " أن فن الكتابة ليس كغيره من فنون العلم، فإن كل علم له حاصر وضابط، ويرجع صاحبه فيه إلى المشطور، فترى المذهبى والجدلى إما أن ينقل مسألة يستفتى فيها، وإما أن يجادل فى مسألة، فعليه أن يتفق نقل السطور إن كان مذهبيا، ويجيد فى المجادلة بتحسين الكلام إن كان جدليا فكذلك ترى النحوى فيما يدرسه فىعلم العربية، وكذلك المحاسب والطبيب وغيرهما. وأما الكاتب فإنه لا حصر له فيما يحتاج من فن الكتابة، لأنه مكلف أن يأتى بما يقوله من ذات خاطره، والمعانى المستخرجة من الخواطر كعدد الرمل إكثارا، أو القطر إدرارا. فينبغى له على ذلك أن يطلع فىهذه العلوم جميعها. ولا أريد بذلك أن يكون عالما فإن هذا غير ممكن، وإنما ينبغى له أن يشم رائحة كل علم، أو يتشبث منه بشئ يدخل فىصناعته، والخطب فى هذا كبير، ولكن وجدت خلاصة ما يحتاج إليه الكاتب ثلاثة أشياء.. الأول: حفظ القرآن الكريم،

---

(١) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٤-٥.

والثانى: حفظ ما ينبغى له حفظه من الأخبار النبوية، على أن الأخبار لايمكن الإحاطة بحفظها كما يمكن الإحاطة بحفظ القرآن الكريم، وإنما يأخذ منها ما يدخل فى هذه الصناعة، وهذا يحتاج إلى فضل معرفة، وثاقب نظر، حتى يؤخذ منه ما يؤخذ، ويترك ما يترك، وكنت أتعبت نفسى زمانا فى ذلك حتى جمعت فيه كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية، كلها يحتاج إليه فى أسباب الكتابة، وكنت ألزم مطالعة ذلك الكتاب لزوم المحتفل. ولا أزال فى مطالعته كالحال المرتحل، حتى صار منضودا، وبلسان قلمى معقودا، وكذلك ينبغى للمترشح لهذه الصناعة. الثالث: حفظ الأشعار الكثيرة التى لا يحصرها عدد مما يكون كل بيت منه فى الجودة بمنزلة قصيدة من غيره... "[1].

آثار هذه النصيحة:

ونلاحظ من خلال هذا النص الأدبى، أو النصيحة الأدبية، ونرى أن ابن الأثير متأثر بفكرة سابقة فى تعريف الأدب، وأنه الأخذ من كل فن بطرف[2]، ثم من الواضح البين أن ه يقصد بهذه النصيحة توسيع فكر وثقافة الأديب والكاتب

---

(١) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٥ – ٦.

(٢) يقول فيلسوفنا الاجتماعى العظيم ابن خلدون: " الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف". وأحدث تعريف للأدب فى الغرب هو " كل شئ قيد الطبع " وقد احتج ادوين غرينلو لذلك بقوله: " كل ما يمت إلى الحضارة بصلة لايخرج من مجالنا ". راجع: محمد فريد وجدى: دائرة معارف القرن العشرين ١: ١٠٧، ورينيه ويليك وأوستن وارين: نظرية الأدب (الترجمة العربية) ١٩.

حتى يتمكن من التعبير عن كل شئ يتحدث عنه فى أدبه، وسنرى فيما بعد أثر هذه النصيحة الأدبية الثقافية العامة فى النقاد والأدباء والبلاغيين والكتاب، وغيرهم من أصحاب هذا الفن.

وبالأضافة إلى هذا القصد والهدف المباشر من وراء الثقافة العامة، هناك هدف آخر غير مباشر لابن الأثير، وهو أن يستغل الأديب والكاتب مصطلحات هذه العلوم فيما ينتجه من الأدب والفن، ويؤكد هذا دفاعه عن استعمال هذه المصطلحات، وتخطئته لابن سنان الخفاجى[1] حينما اعترض على استعماله فى الأدب والكتابة، وذلك بحجة أن " صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم، وكل صناعة، لأنها موضوعة على الخوض فى كل معنى، وهذا لاضابط له يضبطه، ولا حاصر يحصره. فإذا أخذ مؤلف الشعر، أو الكلام المنثور فى صوغ معنى من المعانى، وأداه ذلك إلى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك، فليس له أن يتركه ويحيد عنه، لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذى قصده "[2].

فإذا تأملنا الأدب الذى تم إنتاجه بعد ذلك فإننا نلاحظ بوضوح كثرة استعمال المصطلحات العلمية فيه بشكل ملحوظ، وبصورة واضحة، الأمر الذى

---

(١) ابن سنان الخفاجى: فى كتابه سر الفصاحة، اقرأ فى ذلك: الدكتور إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٦٠٥، ومحمد عبد المنعم خفاجى: دراسات فى النقد الأدبى ١: ٢٤٨.

(٢) المثل السائر ٣: ٢١٣، طبعة نهضة مصر.

أدى إلى شيوع فن التورية[1]، والتوجيه[2] واشتهارهما عند أصحاب البديع، وإذا بحثنا عن أسباب ذلك، فإننا لا نستطيع أبدا إغفال تأثير نصائح ابن الأثير فى ذلك.

وبالإضافة إلى كل ذلك فقد ترتب أيضا على هذه النصيحة الأدبية العامة التى قدمها ابن الأثير للأدباء والكتاب انتشار المعانى العامية فى الأدب العربى بعد ذلك بصورة واسعة لافتة للنظر، فماذا بعد تتبع أحاديث الناس وأقوالهم فى محاوراتهم من أكار وفلاح وأعجمى ونادبة وماشطة ومناد فى السوق على سلعته، وغيرها من طبقات الشعب العاملة إلا النزول إلى العبارات السوقية المبتذلة، والمعانى العامية، والأساليب الضعيفة، والتعبيرات الركيكة.

نحن لا ننكر وجود عوامل أخرى لاستعمال العبارات السوقية، والأساليب الشعبية الركيكة فى الأدب العربى الفصيح، كالضعف الأدبى واللغوى، وضعف السليقة العربية وغيره من العوامل المعروفة والمنتشرة فى ذلك العصر، إلا أننا لا نستطيع إغفال ابن الأثير وتأثير نصائحه الأدبية عند تحديد وتوضيح الأسباب الرئيسية لذلك.

وهدف أدبى آخر رمى إليه ابن الأثير من نصائحه الأدبية، وهو أن مجرد توجيه هذه النصائح للأدباء والنقاد والبلاغيين والكتاب يدل دلالة صريحة قاطعة

---

(١) التورية: أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفى هو المراد. راجع الدكتور بدوى طبانة: معجم البلاغة العربية ٢: ٩١٨.

(٢) التوجيه: هو أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالا مطلقا من غير تقييد بمدح أو غيره راجع الدكتور بدوى طبانة: معجم البلاغة العربية ٢: ٩٠٨.

على محاولته التأثير فيهم تأثيرا مباشرا إبـرازا لشـخصيته الأدبيـة والنقديـة والبلاغيـة والفنية.

ومما ذكر فيما مضى من الحديث يتضح لنا مقدار تلاحم واتصال ابن الأثـير الناقد بالأدباء والبلاغيين اتصالا أدبيا مباشرا كما هو الحال فى عصره من التلاحـم المباشر بين النقد والبلاغة والأدب، وبين النقاد والأدباء والبلاغيين والأدباء.

منهجه فى الحفظ والأخذ والحل:

وبعد أن قام ابن الأثـير بتقديـم نصيحتـه العامـة للأدبـاء والنقـاد والبلاغيـين والكتاب، وطالبهم فيها بالإلمام بعلوم العصر، وما يجـرى فـى الحيـاة اليوميـة، ومـا يقال فيها، خصص لهم علوما معينة رآها ضرورية لهم فى انتـاجهم لـلأدب والفـن وهى حفظ القرآن الكريم، والأخبار النبوية، والأشعار العربية بكثرة زائدة.

١ـ حفظ القرآن الكريم:

وغرض ابن الأثير من حفظ القرآن الكريم، وغايته منـه أن يتـدرب الأديـب والكاتب بحل الآيات القرآنية التى يحتاج إليها حتى تحصل له الملكة التامة فى ذلك، ويأتى خاطره بما لم يكن له فى حسبان: " وحينئذ تتفتح لديـه أبـواب، وتوصلـه إلى أسباب، ويأتيه خاطره بما لم يكن له من حساب، واعلم أن كتاب الله هـو أفصـح الكلام، وما ينبغى أن يسلك به مسلك الأشعار فى حلها، بل ينبغى أن يحافظ على أوكاره لعدم القدرة على مماثلتها ومشابهتها، ولكن أخذ الآية بجملتها ليس من هذا

الفن فى شئ لأنه باب التضمين وقد أوردت لك فى هذا الفصل أمثلة لتسلك بها الطريق، وتجعلها هادية لك إليه... "[1]

ويقول ابن الأثير فى كتابه المثل السائر: " كفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة فى استعمال أفانين الكلام. فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة بحفظه، والفحص عن سره، وغامض رموزه، وإشاراته، فإنه تجارة لن تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يرجع إليه، وذخر يعوّل عليه "[2]، هكذا يوجه ابن الأثير دعوته لحفظ القرآن الكريم والاستفادة منه فى الكتابة والإنشاء.

ثم يبين ابن الأثير للأديب والكاتب طريقته فى حل الآيات القرآنية الكريمة واستعمالها فى إنتاجه الأدبى والفنى، وذلك بالمحافظة على ألفاظها ومفرداتها القرآنية: " لعدم القدرة على مماثلتها ومشابهتها، لكن أخذ الآية بجملتها ليس من هذا الفن فى شئ لأنه من باب التضمين. وهذا الذى نحن بصدده ضربان.. أحدهما أن يؤخذ بعض الآية، فيجعل أول الكلام، أو آخرا، والآخر أن يؤخذ معنى الآية "[3] ثم يتفاخر مشيدا بما فعله من ذلك ليشجع الأدباء عليه بقوله: " وقد سلكت لذلك طريقا اخترعتها، وكنت ابن عذرتها... ولئن كان من تقدمنى أتى بشئ من ذلك فإنى ركبت فيه جوادا، وركب جملا، ونال من مورده نهلة واحدة، ونلت منه نهلا وعللا..."[4]

---

(١) الوشى الالمرقم فى حل المنظوم: ٨٥-٨٦.

(٢) المثل السائر ١: ٧١ -٧٢، طبعة نهضة مصر.

(٣) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٨٦.

(٤) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٨٦، والمثل السائر ١: ١٧٠ - ١٩٠، طبعة نهضة مصر.

وصاحبنا ضياء الدين بن الأثير لا يكتفى بهذا الشرح النظرى، ولا يقف عند هذا الحد، وإنما يتبعه بتطبيق عملى من صنعه، فيورد كثيرا من النماذج والأمثلة التى استعان فيها بحل الآيات القرآنية الكريمة، ليقلده فيها الكاتب والأديب، ويحتذيه، ومن ذلك ما قاله فى وصف الشكر: " الخادم يشكر إحسان المولى الذى ظل عنده مقيما، وغدا بمطالبه زعيما، وإذا اشتمل عليه كهفها تمثل شكره فيه رقيما "[1] ثم يوضح موقع هذا الاستشهاد، ويبين موطن هذا المعنى القرآنى فى القرآن الكريم نفسه، ويقول: إنه مأخوذ ومحلول من قوله تعالى فى سورة الكهف: ﴿ **إن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** ﴾[2] ثم يعقب على عملية الأخذ والحل متباهيا بما فعل قائلا: " وهذا المعنى وإن كان مأخوذا من هذه السورة، مبتدع لى، لم أسبق إليه، وذلك أنى نقلته من المعنى المذكور فى السورة إلى معنى الإحسان، ومثلته فى اشتماله بالكهف استعارة، وإلى معنى الشكر، ومثلته بالرقيم وهو الكتاب. وأنا فى هذا الموضع مبتدع لهذا المعنى كأبى تمام فى ابتداعه حين قابل ضرب المثل فى وصف الممدوح بإقدام عمرو، وسماحة حاتم، وذكاء إياس، بضرب المثل فى وصف نور الله سبحانه بمشكاة فيه مصباح "[3].

---

(١) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٩١.

(٢) الآية رقم ٩.

(٣) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٩٢.

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن الأثير فى ذم بخيل: " جوده بعيد على الأمل، غير مفتقر إلى العذل، وإذا احتفل فهو نهر طالوت حلل للغرفة لا للمنهل "[1]

ثم يعقب على هذه العبارة من تأليفه متباهيا كعادته مستشهدا لشاهده قائلا: " وهذا المعنى مأخوذ من سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود قال إن ا لله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى، ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة ..** ﴾ وهذا من باب أخذ معنى الآية والتصرف فيه "[2]

ومن هذا النوع أيضا ما قاله ابن الأثير فى وصف كريم: " الكريم لا تبعثه التجارب على النظر فى العواقب، ويرى الإيثار والمواساة على درجات المواهب، فإن عذل تمثل بقول الشاعر (أذنى عن الفحشاء صماء) وقال: إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم، ولا أتبع الأسماء "[3] .

ويوضح ابن الأثير موضع الاستشهاد فى هذا النص من تأليفه، ويبينه متباهيا كعادته قائلا: " وبعض هذا الفصل مأخوذ من سورة النجم فى قوله تعالى: ﴿ **إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل ا لله بها من سلطان**﴾ "[4] .

وكما قام ابن الأثير بحل وأخذ معنى من المعانى القرآنية فى طلب الرزق فقال حالا وآخذا: " الإنسان فى كفالة ا لله برزقه غير واثق، وهو فى كل طريق

---

(١) المرجع السابق ٨٥ – ٨٦.

(٢) المرجع السابق ٨٥ – ٨٦.

(٣) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٨٥ – ٨٦.

(٤) المصدر السابق ٨٦ . وسورة النجم الآية رقم٢٣.

إليه سالك، ولكل باب فيه طارق، وكثيرا ما يأتيه وهو عنه نائم، ويقصد عنه وهو إليه قائم. وهذا تعريف بأن الله تعالى فاتح أبوابه، ومسبب أسبابه، ولو فاته المقدور منه بإهماله لأدرك غير المقدور بطلابه، ويكفيه من الإيمان بذلك أنه لا يعرف الأرزاق إلا القادر على خلقها. وكم من دابة مرزوقة وهي ضعيفة عن حمل رزقها، ولو أعطى الإنسان رشدا لألقى عن نفسه ثقل المجئ والذهاب، وعلم أن راحة الاتكال أعود إليه من تعب الاكتساب[1] .

ثم يقوم ابن الأثير بالتعقيب على هذا القول الذى ساقه ليبين فيه موضع الاستشهاد بقوله: " وهذه معان شريفة عالية، لا يلم بها إلا خاطر كان على المعانى غواصا، ولأوابد وحشيها قناصا. وبعض ذلك مأخوذ من سورة العنكبوت فى قوله تعالى: ﴿ **وكأى من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم** ﴾ "[2] .

ومن باب الأخذ والحل ما قاله ضياء الدين بن الأثير فى وصف الكريم: " شيمه كريمة مسيحية فى طبها، كليمية فى تسهيل شربها، فإذا اعتلت الآمال فكنفتها بشفاء عليلها، فلها الفضل الذى ليس بمطروق، والخلق الذى لم يكن قبلها بمخلوق، ولاجناح على من سبّح لها متعجبا، وسجد لها متعبدا، وصلى بالثناء موحدا ومتوحدا "[3] .

---

(١) المصدر السابق ٨٧.

(٢) المصدر السابق ٨٧، وسورة العنكبوت الآية رقم ٦٠.

(٣) المصدر السابق ٨٧.

ويعقب على نصه هذا مبينا المعنيين اللذين أخذهما من القرآن ويقول: " وقد تضمن هذا الكلام معنيين من القرآن: أحدهما فى سورة المائدة فى قوله تعالى:﴿ **وإذ تبرئ الأكمه والأبرص بإذنى** ﴾[1] والآخر فى سورة القصص فى ذكر موسى عليه السلام، وهو قوله تعالى:﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل** ﴾[2] وهذا الموضع قد أخذ المعنى دون اللفظ "[3] .

وكذلك ما قاله فى التعزية آخذا من المعانى القرآنية: " لو ذهب الحزن بالدمع وانهماله، والجزع وأهواله، لكان الصبر لصاحبه أحرى، ولو لم ينل به أجرا، كيف وصلاة الله ورحمته من ثوابه، والجلالة والتقى مطويان فى ضمن ثيابه. وما اعتاض المرء صبرا عن المصاب إلا كان فيه عوض عن مصابه "[4] .

وضياء الدين ابن الأثير يقوم – كعادته – بالتعقيب على هذه العبارة مشيرا إلى الآية القرآنية الكريمة التى أخذ منها هذا المعنى، ويقول: " فى هذا الكلام معنى مأخوذ من القرآن فى سورة البقرة فى قوله تعالى[5] ﴿ **والذين إذا أصابتهم مصيبة**

---

(١) الآية رقم ١١٠.

(٢) الآية رقم ٢٣.

(٣) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٨٧.

(٤) المصدر السابق ٩٢.

(٥) الآية رقم ١٥٦-١٥٧

قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ "[1]"

وهكذا يقدم نماذج من الآيات القرآنية الكريمة، مشيرا إلى المعنى المأخوذ منها ويتفاخر بها كعادته.

مناقشة منهج ابن الأثير فى حفظ القرآن الكريم:

هل يعتبر ابن الأثير أول ناقد أو كاتب عربى يدعو إلى حفظ القرآن الكريم؟ ومما ينبغى الإشارة إليه فى هذا المجال هو أن ابن الأثيرليس أول من نصح بحفظ القرآن الكريم، لأن هذا أمر أقدم منه بكثير، إذ نصح به عدد كبير من الأدباء والكتاب منهم عبد الحميد الكاتب، لأن القرآن الكريم منذ فجر الإسلام، وفى جميع العصور يعتبر المصدر الأول والمادة الأساسية والرئيسية للأدب العربى، وهو المظهر الأول للحياة الأدبية عاشها العرب ويعيشونها حتى اليوم، والقاضى الفاصل حينما سأله ابن الخلال عما أعده لفن الكتابة قال: " ليس عندى شئ سوى أنى أحفظ القرآن الكريم، وكتاب الحماسة، فقال له ابن الخلال: فى هذا بلاغ "[2]

ويبدو أن ابن الأثير قد أخذ فكرة الحل والأخذ عن القاضى الفاضل حينما روى له أن ابن الخلال أمره بحل شعر الحماسة. ثم إن القاضى الفاضل وغيره من الكتاب الذين سبقوه كانوا يستعينون بالقرآن الكريم فى إنتاجهم الأدبى وفى كتاباتهم بطرق مختلفة ومتعددة، منها الحل وما يشبهه. ويبدو أن ابن الأثير قد قام

---

(١) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٩٢.

(٢) المصدرالسابق ٩٢.

بتعميم فكرة الحل هذه، ونقلها من الشعر العربى إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية، ولعل قوله بنقل المعانى القرآنية أثناء عملية الحل إلى المعانى الأخرى مقتبس أيضا من الكتاب السابقين الذين استحسنوا أن يكون المعنى المأخوذ من الشعر العربى منقولا إلى معنى آخر بعد حله، ومن هؤلاء الكتاب ابن طباطبا [1] .

وعلماء التاريخ الأدبى والنقد العربى يقولون: إن هناك من الكتاب السابقين من ألّف كتبا متخصصة فى هذا الموضوع الأدبى الهام، فقد ذكر ياقوت الحموى أن العميدى الذى رأس ديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجرى، له كتاب يسمى " انتزاعات القرآن " وله كذلك كتاب آخر يسمى " الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور "[2] .

ومعنى هذا كله أن نقادا، وأدباء، وبلاغيين وكتابا قد سبقوا ابن الأثير، وقاموا بالدعوة إلى حل الشعر، إلا أنه قد وسع الغرض من هذه الدعوة، وفصل القول فيها تفصيلا، وقام بتشجيع الأدباء والكتاب على ذلك، ليس بما عرضه عليهم من النماذج التى حل فيها الآيات القرآنية فحسب، وإنما أيضا بذهابه إلى أن الأخذ من القرآن الكريم ضرب من الابتداع[3]، مادام الآخذ أو الحال يقوم بنقل

---

(١) ابن طباطبا فى كتابه عيار الشعر٧٧.

(٢) العميدى: هو أبو سعد محمد بن أحمد العميدى، تولى ديوان الإنشاء فى مصر أيام المستنصر، ومن آثاره أيضا " كتاب تنقيح البلاغة " و " سرقات المتنبى ". راجع الدكتور إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٣٧٧، ومعجم الأدباء ١٧: ٢١٢، وبغية الوعاة ١٩.

(٣) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٩٢.

المعنى المأخوذ، أو المحلول إلى معنى آخر، بل نراه يدعو الكاتب بشدة وبحرارة فائقة إلى احتذائه فى ذلك بصراحة وبشجاعة نادرة[1] ما فى ذلك من شك.

وقد فتح ابن الأثير هذا الباب واسعا أمام الأدباء المتأخرين، وشجعهم على ذلك، فاندفعوا فيه بحساب وبدون حساب، ثم كان لهذاكله تأثير عظيم على النقاد والبلاغيين المتخصصين وغيرهم ممن تناولو الفنون النقدية والبلاغية فى مؤلفاتهم، فالشهابى الحلبى[2]، والنويرى[3]، والقلقشندى[4]، وغيرهم ممن تحدثوا عن أصول الكتابة الفنية، هؤلاء جميعا يعتبرون القرآن الكريم مادة أساسية للأديب والكاتب

---

(١) المثل السائر ١: ١٧٠ - ١٩٠.

(٢) الحلبى: هوأبو الثناء شهاب الدين محمود الحلبى المتوفى سنة ٧٢٥هـ، من كبار كتاب العصر المملوكى، كتب الرسائل فى دمشق والقاهرة، كان ناظما وناثرا، وهو صاحب " حسن التوسل إلى صناعة الترسل " .راجع الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة: النقد الأدبى فى العصر المملوكى٧١، وحازم القرطاجنى: منهاج البلغاء ٧٥.

(٣) النويرى: أحمد بن عبد الوهاب (أبو العباس) مؤرخ أديب، مشارك فى علوم كثيرة، من تصانيفه: نهاية الأرب فى فنون الأدب. وقد توفى سنة ٧٣٣هـ . راجع: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١: ٣٠٦.

(٤) القلقشندى: أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ، عمل بديوان الأنشاء بالقاهرة، له مقامة مشهورة باسم " الكواكب الدرية فى المناقب البدرية " وكتاب آخر باسم " صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء " وهو شرح مفصل للمقامة السابقة. راجع الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة: النقد الأدبى فى العصر المملوكى ، والدكتور عبد اللطيف حمزة: القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ٥٢ - ٥٣، العدد ١٢ من سلسلة أعلام العرب، ديسمبر ١٩٦٢م.

بوجه عام، لأنه المعين الـذى يستقى منـه الكـاتب والأديـب معانيـه وألفاظـه، بـل وأساليبه.

وخلاصة ما تقدم ومجمله أن ابن الأثير فى دعوته إلى حفظ القـرآن الكريـم، وحل آياته الشريفة كان متأثرا فى فكرتها بمن سبقه من العلماء، والنقاد، والأدباء، والبلاغيين[1] والكتاب، إلا أنه – كما ذكـرت آنفـا – قـام بتطويـر هـذه الفكـرة، وبلورتها بأن وسع حدودها، وحدد أبعادهـا، وبـين أغراضهـا، وسـهل الاستفادة منها، ويسرها، ودعا بحرارة شديدة، وبصراحة واضحة إلى العمـل بهـا فـى الشـعر العربى، وفى القرآن الكريم، وفى السنة النبوية، حتى كان له أثر كبـير ومؤثـر فـى الأدباء والنقاد المتأخرين، وأيضـا فـى البلاغيـين والكتـاب، ومعنـى هـذا أنـه بهـذه الفكرة يمثل حلقـة مـن حلقـات الاتصـال المباشـر بـين النقـاد والأدبـاء والبلاغيـين والكتاب.

وما دمنا بصدد الحديث عن فكرة عملية حفظ القـرآن الكريـم وحـل آياتـه الكريمة عند ضياء الدين بن الأثير فليس من الخروج عن الموضوع أن أشـير هنـا إلى فكرة أخرى عنده، وذلك لاتصالها بالفكرة السابقة اتصالا مباشـرا، وهـذه الفكـرة هى أنه اعتبر القرآن الكريم معينا فياضا لاستنباط الألوان البديعية، اسمع إليـه حيـث يقول فى ذلك متفاخرا: " وكنت عثرت علـى ضـروب كثـيرة منـه (أى مـن علـم

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بـين البلاغيـين والأدبـاء فـى مصـر فـى العصريـن الأيوبـى والمملوكـى الأول، رسـالة الدكتـوراه غـير مطبوعـة، الرقـم ٢٢٦٧، مكتبة جامعة القاهرة.

البيان فى غضون القرآن) و لم أجد أحدا ممن تقدمنى تعرض لذكر شئ منها. وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره، وقد أوردتها ههنا، وشفعتها بضروب أخر مدونة فى الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته، وأضفت إليها ما أضفته، وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة، وإنما هى متبعة "[1] .

ولقد أثّرت هذه الفكرة فى البديعيين المتأخرين أثرا مباشرا، وعلى الأقل كانت من الأسس الرئيسية التى دفعتهم إلى البحث عن الألوان البديعية فى القرآن الكريم، فمنهم من خصص لذلك كتابا بأكمله كابن أبى الإصبع المصرى فى كتابه " بديع القرآن " ومنهم من اكتفى بالشواهد القرآنية للبديع، أو لمعظم أنواعه كالحلبى، وابن حجة وغيرهما. وقد بالغ هؤلاء المتأخرون فى التماس الشواهد من القرآن الكريم، لكل نوع وفن بديعى حتى أن ابن حجة قد خَطَّأَ ابن المعتز الذى قال عن " المذهب الكلامى " إنه لايعلم ذلك فى القرآن، ورد عليه بأن عدم علمه ليس مانعا علم غيره[2] .

٢ ـ حفظ الأخبار النبوية:

أما دعوة ضياء الدين بن الأثير إلى حفظ الأخبار النبوية، فالشأن فيها كالشأن فى حفظ القرآن الكريم، إذ الطريق واحدة، والغاية كذلك واحدة، فعلى

---

(١) المثل السائر ١: ٣٧، طبعة نهضة مصر.

(٢) خزانة الأدب ١٦٥.

الأديب والكاتب: " حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار النبوية الواردة عن النبى ﷺ، والسلوك بها مسلك القرآن الكريم فى الاستعمال "[1] . فهو ينصح بحفظ الأخبار النبوية للتدرب بحلها، والاستعانة بما فيها من معان وأساليب وتعبيرات، و لم يقتصر فى نصيحته هنا على حفظ الأخبار الصحيحة، وإنما نصح أيضا بحفظ الأخبار التى لم تثبت صحتها: " طلبا للاستكثار من المعانى التى تقتضيها الحوادث، والوقائع المتجددة "[2] .

وكما بين للأديب والكاتب سبيل الاستفادة من حل الآيات القرآنية، فإنه بين لهما هنا طريقة الاستفادة من حفظ وحل الأحاديث النبوية الشريفة قائلا: " واعلم أن حل الأخبار النبوية كحل آيات القرآن فى انقسامها إلى قسمين: أحدهما أن يؤخذ بعض اللفظ، فيجعل أولا لكلام، أو آخرا، والآخر أن يؤخذ المعنى وحده، ويتصرف بوجوه التصرفات "[3] .

ثم يقدم بعد ذلك كثيرا من النماذج التى فيها الأخبار النبوية كتطبيق عملى ليقلده فيها الأدباء والنقاد. ومن ذلك قوله فى فصل يتضمن الحث على الصدقة: " ليست الصدقة لمن مردت على المسألة نفسه حتى صار فيها لحوحا، وكلمت

---

(١) المثل السائر ١: ٤٤، طبعة نهضة مصر.

(٢) الوشى المرقوم فى حل المنظوم٩٩.

(٣) المرجع السابق.

وجهه حتى أصبحت فيه كدوحا[1]، إنما الصدقة لمن قمعه[2] الفقر لباسا فستر ذلك اللباس، وكان لايفطن به فيتصدق عليه، ولايقوم فيسأل الناس "[3] .

ويوضح أن هذا المعنى مأخوذ من موضعين من الأخبار النبوية ﷺ : " السائل كدوح يكدح بها المرء وجهه إلا أن يسأل ذا سلطان، أو فى أمر لايجد فيه بدا "[4] .والموضع الثانى قوله ﷺ: " ليس المسكين من ترده اللقمة، واللقمتان، والتمرة والتمرتان، إنما المسكين من لا يجد غنى نفسه، ولا يفطن به فيتصدق عليه، يقوم فيسأل الناس "[5] .

ويعقب على أخذه وحله وحفظه متباهيا كعادته ويوضح قائلا: " انظر كيف قدرت على هذين الخبرين، وأخذت المعنى منهما. ثم إنى صنعته فى هذه الأسجاع التى تشرق فى جوانب الأسماع، وأودعته فى هذه الفقر التى الأذهان إليها فقيرة، والبصائر منها بصيرة "[6] .

ومن هذا اللون أيضا ما ذكره ضياء الدين بن الأثير فى عدم الابتعاد عن الجماعة: " لو كنت جارا لمولانا لما أقدمت علىّ صروف الأيام، ولا نظرت إلىّ إلا

---

(١) كدوحا: واحده كدح بمعنى خدش، القاموس ١: ٢٤٥.

(٢) قمعه: قهره وأذله، القاموس ١: ٢٧٤.

(٣) الوشى المرقوم فى حل تالمنظوم١٠٠.

(٤) راجع الشوكانى: نيل الأوطار ٥: ٢١٢، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مصر ١٩٧٨م.

(٥) المرجع السابق ٥: ٢٠٦.

(٦) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ١٠١.

بعين الإجلال والإعظام، ولكنى بعدت عن داره فأخذت منى بالناصية، وفرستنى وللذئب من الغنم القاصية "[1] .

ثم يعقب ابن الأثير على هذا، ويعلن بقوله: " فى هذا الفصل معنى من الأخبار النبوية، وهو قول النبى ﷺ: " يد الله على الجماعة ومن شذ شذ فى النار، وإنما للذئب من الغنم القاصية "[2] .

وقد أنشأ ابن الأثير فى العناية على الفقراء والمساكين فيقول: " قد جعل الله النصر والرزق منوطين بالإحسان إلى الضعيف، فمن شاء أن يحظى بهذين الأمرين فليرضخ ولو بالقدر الطفيف. وقد علم أن النار تتقى بشقى تمرة. وما سد رمقا فلا يطلق عليه اسم قلة وإن لم يكن موضوفا بكثرة "[3] .

ويعلن ابن الأثير على إنشائه هذا، ويعقب عليه بقوله: " فى هذا الكلام معنيان من معانى الأخبار.. أحدهما قول النبى ﷺ: " ابغونى ضعفاءكم فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم "[4] . والآخر قوله ﷺ: " ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه كفاحا ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم،

---

(١) المرجع السابق ١٠١.

(٢) المرجع السابق ١٠١-١٠٢.

(٣) المرجع السابق ١٠١-١٠٢.

(٤) راجع المناوى: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١:٨٢، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة "[1] "[2] .

ويقول ابن الأثير فى وصف القلم مبينا فوائده: " قلمه هو القلم الصناع فى صناعته. الذى إذا كسدت بضائع الأقلام نفقت سوق صناعته. ومن خصائصه أن تهزم الجيوش بشجاعته. وتستفتح الحصون بحكم براعته. ولما جدع أنفه وتقمص لباس السواد قيل هذا الجيش الأجدع الذى أمر بطاعته "[3] .

ويتباهى ضياء الدين ابن الأثير كعادته معقبا على هذه العبارة الإنشائية بقوله: "وهذا معنى غريب لم أسبق إليه، ولااخترعه أحد قبلى، وهو مستنبط من قول النبى ﷺ فى الحث على الطاعة، وملازمة الجماعة، فيقول: " أطع ولو عبدا حبشيا مجدّعا ما أقام عليك كتاب الله " ولما كان القلم مجدوعا لابسا لباس السواد من المداد استنبطت له هذا المعنى الشريف اللطيف. فالحظه بالتأمل وانصف من نفسك حتى تعلم مقدار ما أتيت به فى هذا الموضوع "[4] .

مناقشة منهج ابن الأثيرفى حفظ الأخبار النبوية ونتائجه:

وهذا قدر من النماذج التى أخذ ابن الأثير معانيها من الأخبار والأحاديث النبوية، وهو فى منهجه هذا، وفى النماذج التى قدمها فى إطارهذا المنهج لا يهتم

---

(١) راجع البخارى٤:١٣٨، باب صفة الجنة والنار، طبع دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

(٢) الوشى المرقوم فى حل النظوم ١٠٢.

(٣) المرجع السابق ١٠٣.

(٤) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ١٠٣.

إذا كان الخبر صحيحا، أو مدخولا، والمهم فى نظره هو حفظ الحديث والأخذ بما فيه من المعنى، واستعماله فى عبارة إنشائية جميلة.

وابن الأثير يريد أن يعلم الكُتاب والأدباء كيف يستفيدون من الأخبار النبوية كما استفاد هو، ولأجل ذلك يذكر الأخبارالتى قام بالأخذ منها بجانب النص الذى أنشأه، ثم إنه بصنعه هذا يشجع الكتاب على سلوك هذه الطريقة فى حفظ الأخبار النبوية والاستفادة منها فيما ينتجونه من الأدب، وقد بلغ من ذلك ما أراد، إذ يلاحظ الباحث والدارس للأدب منذ عصر ابن الأثير مدى اقتفاء الأدباء والكُتاب والبلاغيين لآرائه فى الحفظ من الأخبار النبوية.

و لم يكن تأثير ابن الأثير بفكرة الأخذ من الحديث وحفظه مقصورا على الأدباء والكُتاب وحدهم، وإنما شمل البلاغيين المتأخرين – إذا فسرنا البلاغة بمعناها الأوسع الأعم – فقد زاد اهتمامهم بالحديث النبوى الشريف، فمنهم من نصّ صراحة علىضرورة حفظه، لأنه مادة من المواد النقية اللازمة لثقافة الأديب والكاتب، ومنهم من عرض منه بجانب القرآن الكريم كثيرا من الشواهد لألوان البديع وفنونه التى تناولوها فى كتبهم وشروحهم، وهذا أكثر من أن يحصى، وأوضح من أن يدل عليه، أو أن يحتج له.

وكما كان ابن الأثير مسبوقا فى دعوته إلىحفظ القرآن الكريم، فإنه كذلك مسبوق فىدعوته إلى حفظ الحديث الشريف والأخذ منه، غير أنه وسع فيه، ولفت

أنظار المتأخرين من الأدباء العرب، أكثرمن غيره من النقاد والبلاغيين السابقين إلى هذا الباب[1] .

٣- حفظ الشعر العربى:

يرى ابن الأثير أن حفظ الشعر العربى على جانب كبير من الأهمية البالغة، ولأجل ذلك فقد نصح الأدباء بحفظ الأشعار الكثيرة التى لا يحصرها عدد، مما يكون كل بيت بمنزلة قصيدة من غيره[2]. ولأجل أن يبين للأدباء أهمية هذه النصيحة الأدبية فى الحل والحفظ، ويشجعهم على العمل بها بإتقان، أخبرهم بأنه قد حفظ من الأشعار القديمة والمحدثة العدد الكبير الذى لا يحصى كثرة[3]، ووقف منها على كل ديوان ومجموع، وأنفذ شطرا من العمر فى المسقوط منه والمسموع[4]، مما كان لكل ذلك أروع الأثر فى الأدب الذى أنتجه.

وابن الأثير مع قيامه بحفظ كثير من الشعر القديم والحديث، إلا أنه كان يفضل أشعار المحدثين لأنه كان يرى أن المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة الرقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.

(٢) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٦.

(٣) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ١٠

(٤) المثل السائر ٣: ٢٢٥، طبعة نهضة مصر، و٣: ٢٦٨ دار الرفاعى بالرياض

الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف والرصين. وقد وجد هذا المراد الإبداعى عند الشعراء المحدثين، وذلك لاشتمال دواوينهم على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ، ومن المضامين والصور[1]

ثم إن اهتمام ابن الأثير على شعر كل من أبى تمام والبحترى والمتنبى من بين أشعار المحدثين، وعكوفه عليه بالحفظ والدرس، وبالحل والفحص كان له أثره العظيم فى تنمية ميله الأدبى والفنى إلى حب الصنعة، وبالتالى تمكنه منها تمكنا متينا، حيث إن الملكة الأدبية والفنية تتأثر حتما وإلى حد كبير بنوع المحفوظ وقدره، كما أشار إلى ذلك الفيلسوف الاجتماعى المسلم ابن خلدون[2] .

وكان غرض ابن الأثير من ذكر محفوظه من الشعر العربى، وبيان نوعه ومقداره أن يتباهى بثروته الأدبية الهائلة أولا، ثم أن يوجه الدعوة إلى المتأدبين بغرض تقليده والاقتفاء به فيما حفظه كما ونوعا، وثانيا، يؤيد ذلك، ويوضحه قوله: " فلا تقنع أيها الخائض فى هذا البحر الذى لا ساحل له إلا بأن تفعل ما فعلته، وتسلك ما سلكته "[3]

---

(١) المرجع السابق ٣: ٢٢٥ وما بعدها.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٧٩.

(٣) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ١٠.

وغرض ابن الأثير من هذه النصيحة هو أن يتدرب المتأدب بحل محفوظه من الشعر العربى " حتى تحصل له الملكة ليكون إذا كتب كتابا، أو خطب خطبة، جاءته المعانى سانحة وبارحة "[1] .

ثم إنه لا يترك المتأدب أن يقوم بحل الشعر بطريقته الخاصة، وكما يشاء، ويستفيد من ذلك كما يريد ويرغب، بل يرسم له الطريق إلى ذلك، بأن يقسم عملية الحل إلى ثلاث أقسام: حل الشعر بلفظه، وذلك أدنى درجاته، وببعض لفظه، وهو وسط، وبغير لفظه، وهو الطبقة العليا لخفاء أمره[2] .ويضع تحت كل قسم من هذه الأقسام نماذج متعددة من عمله فى عملية الحل لتكون قدوة للمتعلم والمتأدب والمتدرب[3] .

ولأجل أن يقوم ابن الأثير بتشجيع الأدباء والكتاب على سلوك طريقة أخذه من الشعر وحله فإنه بالغ كثيرا فى استحسان النماذج التى قدمهاوعرضها لحل الشعر، والتصرف فيه. وقد لاقت هذه الدعاية الأدبية التى قام بها شهرة وهوى فى نفوس أدباء عصره، ومن أتى بعدهم من الأدباء والمتأدبين، لأنهم كانوا يحسون

---

(١) المرجع السابق ٨، وراجع الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة الرقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة، وشعراء التورية فى القرن السابع الهجرى، رسالة الماجستير غير المطبوعة الرقم ٢٢٦٢ مكتبة القاهرة.

(٢) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٤١.

(٣) المرجع السابق ٤١.

بضعفهم الأدبى عن السابقين، ودفعهم هذا الإحساس إلى محاكاة القديم من الشعر العربى، بل إلى الاعتماد عليه بهذه الطريقة التى نادى بها ابن الأثير، وفتح بابها على مصراعيه. وهى من غير شك طريقة سهلة ميسورة[1] فى صناعة النظم، والاستفادة من حل الشعر، بل هى أقصر الطرق إلى ذلك، والضغيف دائما وأبدا يلتمس الأمور السهلة، والطرق القصيرة، وهذا هو الذىحدث للأدب الشعرى فى هذا العصر، فالباحث يلاحظ بوضوح أن الشعر أو معظم الشعر فى ذلك العصر – على أحسن الظنون – قد صار حلا وأخذا للقديم.

مناقشة منهج ابن الأثير فى حل الشعر وعواقبه:

وكان من نتائج هذه الطريقة ومن عواقبها أن أغرت كيثرا من أدعياء الشعر على النظم، وماذا يعوّقهم عن ذلك؟ فالطريق مفتوح، والأمر سهل، لا يكلف أكثر من وضع اليد على قصيدة، أو أكثر من الشعر القديم، ثم القيام بتغيير ألفاظها، أو بعض ألفاظها، وأغرب ما فىالأمر أن هذا العمل لم يكن منكرا. وهكذا نجد أن دعوة ابن الأثير إلى حل الشعر أصبحت فى ظروف الضعف الأدبى سببا فى وجود نظم عربى ركيك شأنه ممسوخ ممقوت، وإلى وجود كتابة سقيمة لا قيمة لها من ناحيتى الإبداع والأصالة.

وبالطبع، لم يكن قصد ابن الأثير أن تكون دعوته إلى حل الشعر سببا فيما وصل إليه الأدب العربى من الضعف والهزال، فهو يحذر من هذا الانحراف الأدبى

---

(١) ذكرأبو هلال العسكرى أن حل المنظوم ونظم المحلول أسهل من ابتدائهما، الصناعتين ١٦٣.

الخطير، وينبه بشدة إلى ما يجب اتباعه فى حل الشعر، وذلك بقوله: "ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا فى كتابته بما يستخرج من القرآن الكريم، والأخبار النبوية، والشعر، بحيث إنه لاينشئ كتابا إلا من ذلك، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن، وأكثر من الأخبار النبوية، والشعر، ثم نقّب من ذلك تنقيب مطّلع على معانيه، مفتّش عن دفائنه، وقلبه ظهرا لبطن، عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف، فيما ينشئه من ذات نفسه، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية"[1].

ولكنه مع هذا التحذير والتنبيه يعتبر مسئولا إلى حد كبير عما أصاب الأدب من الوهن والهزال والمسخ، إذ أنه لم يحسن عرض الطريقة التى عملها لتحقيق قصده وغايته بدعايته العريضة التى غطت وجه الحقيقة من دعوته، ولبّست الأمر على الأدباء والكتاب، فلم يفطنوا إلى القصد الصحيح، والغاية المنشودة، ولم يفرّقوا بين الوسيلة والغاية فى هذا الموضوع الأدبى، فاتخذوا الحل غايتهم الكبرى، ونسوا أنه وسيلة إلى تربية الملكة الأدبية، والذوق الأدبى المكتسب.

وقد اتضح لنا من عرض كل ما تقدم من الكلام فى هذا الشأن تأثير ابن الأثير بهذه الدعوة، وبتلك الدعاية العريضة فى الأدباء والنقاد والبلاغيين من بعده، وبالتالى فقد ترك أثره العميق والمؤثر فى الأدب والنقد والبلاغة وفى الكتابة الفنية.

السرقات الشعرية:

وهنا فى هذا المجال موضوع آخر يتصل اتصالا وثيقا بموضوع حل الشعر عند صاحبنا ابن الأثير، وذلك هو موضوع السرقات الشعرية، لأن الخط الفاصل

---

(١) المثل السائر ١:١٢٧، طبعة نهضة مصر.

بينهما دقيق عنده، ويكاد يتلاشى فى بعض أجزائهما.. ففى حل الشعر يستحسن الحل بالمعنى لخفاء أمره[1]، وهو ينصح بأخذ المعانى الشعرية بطريق الاختلاس والمساترة[2] .وفى السرقات يستحسن سرقة المعنى، ومن الأفضل فى نظره أن يسمى الخفى منها ابتداعا، وهو أولى من أن يسمى سرقة[3] ..فالسرقة عنده مختلطة بالحل كاختلاطها به عند ابن رشيق من قبل حيث قرر أن " أجل السرقات نظم النثر، وحل الشعر"[4] . فالسرقات الشعرية عندهما فن إبداعى ولا يدخل فى إطار السرقات الأدبية الأخرى.

وابن الأثير قد شعر وأحس بشدة الصلة الوثيقة بين السرقات والحل، ولهذا توقع أن يعترض عليه معترض لفصله بينهما، وتخصيصه بابا لكل منهما، فافتتح موضوع السرقات، وبدأه بقوله[5]: " ولربما اعترض معترض فى هذا الموضوع فقال: قد تقدم نثر الشعر فى أوّل الكتاب، وهو أخذ الناثر من الناظم، ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم، فلم يكن إلى ذكر السرقات الشعرية إذن حاجة "[6] .

---

(١) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ٤١.

(٢) المثل الثائر ٣:٢١٨.

(٣) المرجع السابق ٣:٢١٨.

(٤) العمدة ٢:٢٧٧.

(٥) راجع الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة الرقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.

(٦) المثل السائر٣: ٢١٨، طبعة نهضة مصر.

ومن الواضح الجلى أن الذى ينصح بحل الشعر ويستحسنه، ويعد نوعا منه ابتداعا، لاشك أنه يبيح السرقات الشعرية، وهذا ما فعله ابن الأثير، وذلك استنادا إلى أنه: " لايستغنى الآخر من الأول "[1] بشرط أن يخفى الآخذ ما يأخذه، أو يسرقه إخفاء جيدا حتى لاينادى على نفسه بالسرقة الأدبية، وحتى لاينكشف أمره، لأن " الأصل المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والإخفاء، بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب، وأطرف من عنقاء مغرب فى الإغراب "[2] .

وأبو هلال العسكرى قد صرح بذلك قبل ابن الأثير، حيث أباح السرقة بهذا الشرط، ووضعها فى كتابه الصناعتين تحت باب سماه " الأخذ "[3] ولعله يريد بهذه التسمية أن يخفف من شدة وقع لفظ السرقة، وذلك بقوله: " ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم، ويوردوها فى غيرحليتها الأولى، ويزيدوها فى حسن تأليفها، وجودة تركيبها، وكمال حليتها، ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها. ولو لا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان فى طاقته أن يقول.. وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين"[4] . ثم يعود ليؤكد ذلك بقوله: " وسنشبع القول

---

(١) المرجع السابق ٣: ٢١٨.

(٢) المرجع السابق ٣: ٢١٨.

(٣) الباب السادس فى حسن الأخذ وحل المنظوم، الصناعتين ٢١٥،الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤.

(٤) الصناعتين٢١٧، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.

فى هذا الباب: والحاذق يخفى دبيبه إلى المعنى، ويأخذه فى سترة، فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمر به.. وأحد أسباب السرقة أن يأخذ معنى من نظم فيورده فى نثر، أو من نثر فيورده فى نظم...»[1] .

وإذا كان أبو هلال العسكرى قد أباح السرقات الشعرية، وأجازها، وامتدح الخفى منها، ورسم الطريق إليها فى القرن الرابع الهجرى حيث كان الشعراء أقوى سليقة، وأسلم فطرة، وأقرب إلى اللغة العربية الفصحى من هؤلاء المتأخرين، فضياء الدين بن الأثير إذن معذور إذا جاء بعده بأكثر من قرنين، وأباح السرقة، لأن عصره بالقياس إلى عصر أبى هلال العسكرى عصر ضعف أدبى، وكان شعراء هذا العصر الأدبى يحسون هذا الضعف الأدبى واللغوى، فاضطروا اضطرارا إلى تقليد القدماء، والأخذ منهم بسرقة معانى أفكارهم الشعرية. وقد عاش ابن الأثير فى هذه الظروف الأدبية فى تلك البيئة الضعيفة، ولمس حاجة معاصريه من الأدباء والكتاب والبلاغيين والنقاد إلى الاستعانة بالقديم، فقام ورسم لهم كيفية هذه الاستعانة، وصورها، ودعا إليها بشجاعة وصراحة، وبصورة مشجعة جريئة دون التردد فى ذلك.

ومما لا شك فيه – فى مثل هذه الظروف – أن دعوة كدعوة ابن الأثير تلقى دائما آذانا صاغية مرهفة، وقلوبا مستجيبة، وبخاصة فى مثل تلك العصور

---

(١) المرجع السابق ٢١٩، وانظر أيضا الدكتور بدوى طبانة: السرقات الأدبية ١٧٠، الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار الثقافة، بيروت.

المتأخرة، حيث كان – بجانب الضعف الأدبى واللغوى – قد وقر فى نفوس الأدباء والعلماء والبلاغيين والكتاب أن ينابيع حسن الابتكار قد جفت إلى الأبد، وأن باب الاجتهاد قد أوصد إلى يوم القيامة، ولكن ابن الأثير لم يوافق على هذه الفكرة القائلة بأن باب الاجتهاد قد أوصد، فعارضها معارضة شديدة، وأقام البراهين والأدلة علىبطلانها، وذلك بغرض بعث الأمل فى العقول التى استكانت إلى التقليد، فقد جهر وصرح بأن: " باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة "[1]، ولكن ما معنى الابتداع فى نظره ؟ وإذا رجعنا إلى تعليق ابن الأثير على رسالته التى تقدم ذكرها فى وصف الشكر[2] فإننا نقف على إجابة هذا السؤال، فالابتداع عنده أمر يسير جدا، لايكلف كثيرا من الجهد، ولا يحتاج إلا إلى البراعة فى السرقة، أو إلى خفة اليد فى اختلاس المعانى القديمة، وقطع صلتها بأصلها وبصاحبها، بحيث تبدو أمام القارئ شيئا جديدا بعد تغيير صورتها الأولى، وإظهارها فى صورة جديدة، أو شكل جديد، وإذا كان الأمر كذلك فليس على الأدباء من حرج إذا استباحو ما تدركه عقولهم، وتصل إليه أيديهم من معانى السابقين، وقاموا بتغيير صورها وألوانها. إنهم فى نظره ليسوا من اللصوص والسارقين، بل من المبتدعين المبتكرين. ولاشك فى أن هذا المفهوم للابتداع

---

(١) المثل السائر ٣:٢١٩ طبعة نهضة مصر.

(٢) انظر ص ٧٠ من هذا البحث.

والابتكار عند ابن الأثير دافع قوى آخر للأدباء والبلاغيين إلى الاعتماد على معانى القدماء، والتفنن فى سرقتها ببراعة وإخفائها بمهارة [1] .

وابن الأثير لايقف عند الرضا عن السرقة الأدبية، ولا يكتفى بذلك فحسب، وإنما يضرب كثيرا من الأمثلة، وكثيرا من النماذج التى تحمل سمات السرقة، مبينا الأصول التى سرقت منها، وكأن ابن الأثير كان يعلم أنه سيجئ بعد عصره أدباء أضعف من أن يحسنوا شيئا حتى السرقة من السابقين، وهو أثناء ذلك يشيد بشدة بهذه النماذج والأمثلة، أو بهذه السرقات الأدبية، وذلك ليبين للأدباء والنقاد والبلاغيين .. كيف قام بسرقة معانى السابقين حتى يسرقوا مثله، ويحذو حذوه فى السرقات الأدبية.

أنواع السرقات الأدبية وألوانها الفنية:

عد الأقدمون، ومنهم ابن الأثير السرقات الأدبية نوعا من الفنون الأدبية والبلاغية، لأنها مجال الحذق والمهارة لا يستطيع القيام بها إلا الحاذق المبرز من الأدباء. وقد قام ابن الأثير بتقسيم السرقات تقسيما فنيا دقيقا بارعا، فقال:

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة، الرقم ٢٢٦٧، مكتبة جامعة القاهرة.

" واعلم أن علماء البيان قد تكلموا فى السرقات الشعرية، فأكثروا [1]، وكنت ألفت فيها كتابا، وقسمته إلى ثلاثة أقسام: نسخا، وسلخا، ومسخا.

" وأما النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه، مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب.

" وأما السلخ فهو أخذ بعض المعنى، مأخوذا من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ.

" وأما المسخ فهو إحالة المعنى إلى ما دونه، مأخوذا من مسخ الآدميين قردة.

---

(١) من النقاد الذين قاموا بدراسة السرقات الشعرية: القاضى الجرجانى فى كتابه الوساطة، فقد قسم المعانى إلى ثلاثة أقسام: المعانى المشتركة التى لايجوز ادعاء السرقات فيها، والمعانى المبتذلة التى ليس لأحد ادعاء الأولوية فيها، والمعانى المختصة التى حازها المبتدئ، فصار المعتدى عليها سارقا. الوساطة بين المتنبى وخصومه١٧٩. وقال أبو القاسم الحسن ابن بشر الآمدى فى كتابه الموازنة بين الطائيين: إن من أدركه من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعانى من مساوئ الشعر، وخاصة المتأخرين منهم، إذ كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر. الموازنة ١: ٢٩١. وقد قسم محمد الحاتمى السرقة (الأخذ) إلى تسعة عشر نوعا (بابا) وهذه الأبواب هى: الانتحال، الإنحال، الإغارة، المعانى العقم، المواردة، المرافدة، الاجتلاب والاستلحاق، الاصطراف، الاهتدام، الاشتراك فى اللفظ، إحسان اللفظ، التكافؤ، التقصير، نقل المعنى، تكافؤ السارق والسابق، اللطف فى إخفاء السرقة، كشف المعنى بزيادة، الالتقاط والتعليق، نظم المنثور. راجع: إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٢٥٨ – ٢٦٣.

" وهـا هنـا قسـمان آخـران أخللـت بذكرهمـا فـى الكتـاب الـذى ألفتـه، فأحدهما أخذ المعنى مع الزيـادة عليـه، والآخـر عكـس المعنـى إلى ضـده، وهـذان القسمان ليس بنسخ، ولا سلخ، ولا مسخ.

" وكل من هذه الأقسام يتنوع، ويتفـرع، وتخـرج بـه القسـمة إلى مسـالك دقيقة، وقد استنفدت ما فاتنى من ذلك فى هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

" ومـن المعلـوم أن السـرقات الشـعرية لا يمكـن الوقـوف عليهـا إلا بحفـظ الأشعارالكثيرة التى لا يحصرها عدد، فمن رام الأخـذ بنواصيهـا، والاشـتمال علـى قواصيها بأن يتصفح تصفحا، ويقتنع بتأملها ناظرا، فإنه لا ينظر منها إلا بالحواشـى والأطراف "[1] .

يقوم ابن الأثير بعرض وتقديم النماذج والأمثلة الفنية التى وقع اختياره عليها أو أجاد سرقتها ليقلده الكتاب والأدباء والبلاغيون والنقاد فى ذلك[2] مسترشـدين بتوجيهاته ونصائحه الأدبية فى السرقة الفنية. ومما لا شـك فيـه أن تقديمـه وعرضـه الشيق لهذه النماذج والأمثلة، ثم استحسانه لها، ومشاركته فيهـا مشـاركة عمليـة، وافتخاره ومباهاته بكل ذلك قد شجع الأدبـاء والكتـاب علـى السـرقة، والأخـذ، والحل ببراعة، وأزال الخوف والتردد من نفوس المترددين منهم فـى مزاولـة السـرقة وممارستها، وقد نتج من ذلك ضعف شديد فى الملكـة الأدبيـة وطمـع وجشـع فـى نفوس المتأدبين الذين تطاولوا على الأدب وفنونه ومعانيه بلا استحياء.

---

(١) المثل السائر ٣:٢٢٢-٢٢٣، طبعة نهضة مصر.

(٢) راجع هذه النماذج والتعليقات عليها فىالمثل السائر ٣:٢١٩-٢٩٢، طبعة نهضة مصر.

لم يكن قصد ابن الأثير أن يغض الأدبـاء أعينهـم عـن واقعهـم الأدبـى، وأن يلغوا ملكاتهم، وإحساساتهم، ومشاعرهم الفنيـة، وأن يتوجهـوا كليـا إلى المـاضى القريب والبعيد يقلّبون صحفه، ويأخذون أويسرقون صورة من هنـا، وصـورة مـن هناك، أو معنى من هنا، ومعنى من هناك، أو يسرق الألفاظ من هنـا والمعـانى مـن هناك، ثم يقومون بعملية التنسيق بين كل ذلك لينظموا الشعر، أو يكتبوا الرسائل، دون أن يكون هناك صلة بين ما ينظمونه، أويكتبونه، وبين واقعهم الذى يعيشونه.

لم يكن ابن الأثير يرمى إلى السطو على نتاج الغير، كذلك لم يكن يرمـى إلى إلغـاء شخصية الأديب وواقعه حينما أباح السرقة واستحسنها، وبخاصة الخفى منها، وإنما كان قصـده أن يستعين الأدبـاء بمـا يحفظونـه مـن الشـعر القديـم، ويقومـون بحلـه واستعماله فيما يتفق مع الموضوعات التى ينظمون فيها القصـائد، أو يكتبـون فيهـا الرسائل، وبقدر ما يحتاجون إليه من المعانى التى يصعب عليهم ابتكارها.

وعلى هذا فإن قصد ابن الأثير بالنسبة إلى عصـره لا غبـار عليـه، ولا عيـب فيه، فقد أقر السرقة الأدبية، واستحسنها غيره من قبل فى عصور كان الأدباء فيهـا أقوى سليقة، وأقوى لغة من أدباء عصره، كما مر، إلا أن ما يؤخـذ عليـه هـو أنـه فى أثناء عرضه للنماذج التى عرضها، كان يشيد بكثيرمنها حتى رفعهـا إلى درجـة الابتكار، والابتداع، الأمر الذى جعل الأدباء والكتاب ينسون المقصود من دعوتـه بتأثير قوى من ضعفهم الأدبى، وميلهم إلى التقليـد، والسـرقة والسـطو علـى نتـاج الغير[1].

---

(١) راجع تفصيل كل ذلك فى " الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة الدكتوراه للدكتور محمد عبد القادر عبـد النـاصر، الرقـم ٢٢٦٧ مكتبة الجامعة القاهرة.

ولا ينبغى أن ننسى أن هناك عاملا آخر ساعد على انتشار السرقات الأدبية والسطو على معانى الغير من السابقين، وذلك بجانب دعوة ابن الأثير إلى الأخذ والسرقة، وبجانب الضعف الأدبى واللغوى، والميل إلى التقليد والتبعية والتكلان على الغير، وهذا العامل هو انتشار كتب المختارات أو المجاميع الشعرية والنثرية. فقد انتشرت كتب المجاميع فى أيام ابن الأثير، وكانت تضمن مقطوعات كثيرة تدور كل مجموعة منها حول غرض واحد كالمدح والهجاء، والفخر والحماسة، والوصف والرثاء وغيرها من موضوعات الأدب العربى، بل تدور أيضا حول صورة أدبية واحدة من الصور التى عاشت فى الشعر العربى كالخال والخيال، والهجر والفصال، وغير ذلك. ثم تطور أمر هذه المجاميع والمختارات آخر الأمر حتى صار الباحث يجد فيها بالإضافة إلى ما تقدم، صورا بلاغية، وفنونا بديعية كالتشبيه والاستعارة والكناية والتورية، وما إلى ذلك من الفنون البلاغية والبيانية، بل صرنا نجد فيها ما هو أدق من هذا كالمقطوعات أو أبيات فى تشبيه الخد بالورد مثلا. ومثل ذلك فى الاستعارات والكنايات والتوريات حول كلمات معينة. وبهذا كله صار أمر الأخذ، والسرقة، والسطو، والحل من أسهل الأمور، لأنه لم يعد يكلف الآخذ، والسارق، والحال أى عناء أو جهد، فما عليه إذا أراد أن يسرق غرضا من الأغراض، أو يأخذ صورة معينة من الصور الأدبية والبلاغية إلا أن يرجع إلى هذه المجاميع والمختارات الشعرية والنثرية فيلتقط منها ما يريده بالطرق المختلفة التى رسمها ابن الأثير، وقدم لها عددا كبيرا من النماذج والأمثلة.

فمن كل ما تقدم فى السرقات الأدبية يتضح لنا أن اهتمام ابن الأثير بالسرقات وعنايته بها، وتوسعه فيها، واستحسان الخفى منها، كل ذلك كان

صدى وانعكاسا للظروف الأدبية فى عصره، كما كان أيضا مجاراة ومراعاة للذين فتحوا هذا الباب قبله من الأدباء والنقاد والبلاغيين والكتاب. ويتضح لنا كذلك أن ابن االأثير كان له تأثير واضح ومؤثر فى الأدب والأدباء، والنقد والنقاد، وفى الكتابة الفنية والكتاب، الذين أتوا بعده، وساروا سيره، ونهجوا نهجه فى السرقات[1] والحل والسطو.

بعض النماذج البلاغية:

وقفنا فيما سبق على ما عرضه ابن الأثير من النماذج، وما قدمه للأدباء والنقاد والبلاغيين من النصائح، وما ضرب لهم من الأمثلة التطبيقية التى تساعدهم وتعينهم على اتباع هذه النصائح، وتقليد تلك النماذج التطبيقية، ونقف الآن عند موضوعاته البلاغية والبيانية والفنية.

ولن أحاول فى هذه الوقفة البيانية أن أتتبع كل موضوعاته البلاغية حيث إنها كثيرة، وليس لها مجال فى هذا الموجز، ولكنى سأختار منها ما يوفى بالغرض، ويكفى لتوضيح ما بينه وبين البلاغيين والأدباء والنقاد من صلات وروابط، وسأحاول أن تكون الموضوعات المختارة من النوع واللون الذى يمثل الصناعتين

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة رقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة، وشعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، رسالة الماجستير رقم ٢٢٦٢ مكتبة جامعة القاهرة.

اللفظية والمعنوية حسب تقسيم ابن الأثير للبلاغة، ويمثل كذلك القديم والمعاصر لابن الأثير من الموضوعات البلاغية والفنية فى البيان العربى.

السجع:

السجع من الموضوعات البلاغية والفنية الهامة التى اهتم بها ابن الأثير أديبا وناقدا وبلاغيا، والتى كانت مثارا للاحتكاك بين البلاغيين والأدباء والنقاد فى العصور الأدبية المختلفة قبل ابن الأثير وبعده، ولأجل ذلك بدأت به الحديث، وقدمته على موضوعات ابن الأثير البلاغية الأخرى.

والسجع فن من الفنون الجمالية، وحلية قديمة، أولع بها الكتاب والخطباء منذ أقدم العصور الأدبية فى تاريخ الأدب العربى، ثم ازداد أمره خطورة وشيوعا، واتسع نطاقه فى القرن الرابع الهجرى، وبخاصة فى المشرق الإسلامى على يد الصاحب بن عباد الكاتب البارع الذى أولع به إلى حد الإفراط والغلو. ثم انتقل الاهتمام والعناية به إلىالكتاب والخطباء فى العصر الفاطمى، وبخاصة فى مصر، ومنهم إلى الناقد البصير، والبلاغى البارع القاضى الفاضل الذى عاصره ابن الأثير، ونافسه فى كثير من المسائل الأدبية والموضوعات الفنية.

ولما اتسع السجع، وانتشر فى القرن الرابع الهجرى، كان من واجب فنون النقد والبلاغة التى ترصد حركات الأدب، وتسجل تطوراته، وتراقب قيمه الأدبية، أن تقوم بتتبع السجع، وبيان قيمته البلاغية والفنية والنقدية، وقد قام أبو هلال العسكرى بهذا الواجب النقدى والبلاغى والأدبى. وجاء بعده ابن الأثير

فاستفاد من تجارب أبى هلال العسكرى النقدية فى هذا الموضوع[1] كما استفاد منه فى غيره من الموضوعات الأدبية والنقدية والبلاغية .هذا بجانب أنه تأدب، وصار ناقدا فى عصر أصبح السجع فيه موضع إعجاب كل من الأدباء والبلاغيين، وملتقى النقد والأدب والبلاغة . فلا غرو أن يلتزمه فى كتابته، ويدافع عنه فى بلاغته ونقده الأدبى.

وابن الأثير مع أنه استفاد فى فنون السجع المختلفة من غيره من النقاد والبلاغيين وأرباب الفنون البيانية، ومع تأثره بالتزام كتاب عصره، وأسلافهم للسجع وفنونه، إلا أنه أفاض، وأطنب فى الكلام عنه، ويعتبر أبرز من اهتموا بالكلام عنه، وبالإضافة إلى ذلك فإنه دافع عن فنون السجع دفاعا شديدا، وفنّد أقوال من عارض السجع وذمه، واحتج بما ورد منه فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، و لم يكتف بهذا الدفاع وبتلك البراهين والحجج، وإنما ذهب إلى أن السجع: " أعلى درجات الكلام، وإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة [2]، فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم " [3] . وكان لتمجيد ابن الأثير للسجع فى بلاغته، وتشجيعه له، والتزامه له فى كتابته، أثر كبير فيمن جاء بعده من الكتاب والبلاغيين والنقاد العرب.

---

(١) وأفاد ابن الأثير فى هذا الموضوع من عبد القاهر الجرجانى أيضا فيما وصفه فى شروطه لحسن السجع.

(٢) شرط ابن الأثير فى السجع: أن يكون اللفظ تابعا للمعنى. المثل السائر ١:٢٧٦، طبعة نهضة مصر.

(٣) المثل السائر ١:٢٧٧، طبعة نهضة مصر.

فقد زاول الكتاب السجع ومارسوه فى رسائلهم، والتزموه، وحرصوا عليه حرصا شديدا،حتى سرت عدواه من الكتاب إلى المؤلفين فى العلوم الأخرى، كصاحب المسالك وغيره، وكان طبيعيا أن يتأثر الكتاب والمؤلفون بابن الأثير، وأن يعتمدوا عليه لإحكامه الصنعة، وعلى تمجيده للسجع، وعلى دفاعه عنه، والدعوة إليه، فالتزموه فى كتاباتهم، لأن الذوق الأدبى العام فىذلك العصر كان ذوق صنعة تفاعلت فيه العوامل الاجتماعية والأدبية المختلفة، والسجع كما نعلم أول وأوسع أبواب الصنعة اللفظية، لأن الفن الذى ساد ذلك العصر كان فن زينة غلب عليه الطابع الزخرفى والجمالى.

وقد اقتفى البلاغيون فى بلاغتهم أثر ابن الأثير وحذوا حذوه، كالحلبى، وابن الحجه الحموى، إذ نقلوا عنه آراءه ونظرياته فى فنون السجع المختلفة، كما نقلوا شواهده وأمثلته المختلفة [1] .

فالسجع، كما تبين لنا من هذه الدراسة الموجزة، حلقة محكمة من حلقات الاتصال بين ابن الأثير البلاغى وبين الأدباء من ناحية، وبينه وبين البلاغيين والنقاد من ناحية أخرى، وشأن السجع فى ذلك شأن الفنون البلاغية الأخرى التى تمثل حلقات السلاسل الذهبية الزخرفية التى تربط بينه وبين غيره من العلماء والأدباء والنقاد، كما تربط بين الأدب والنقد والبلاغة والفنون القولية الأخرى.

---

(١) راجع على سبيل المثال موضوع السجع فى كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى ٧١.

التجنيس:

ويقال له الجناس، والتجانس، والمجانسة، وهو من الموضوعات البلاغية التىاهتم بها ابن الأثير فىميدان الصناعة اللفظية، وبلغ به الأمر فى العناية به حتى ربط بينه وبين وضع اللغة. وهو يرى أن المتأدب يحتاج إلى معرفة الأسماء المشتركة فى اللغة، وذلك ليستعين بها فى استعمال فنون التجنيس فى كلامه وكتابته[1] .وفى أهمية التجنيس ودوره فى الصناعة اللفظية يقول: " اعلم أن التجنيس غرة شادخة فى وجه الكلام، وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه، فغرّبوا وشرّقوا، وسيّما المحدثين منهم، وصنّف الناس فيه كتبا كثيرة، وجعلوه أبوابا متعددة، واختلفوا فى ذلك، وأدخلوا بعض تلك الأبواب فى بعض،... "[2] . من هذا النص الذى قاله فىالإشادة بالتجنيس وأهميته فى البلاغة يتضح لنا اهتمام ابن الأثير بالتجنيس، وعنايته الفائقة به كغرة لامعة فى وجه الكلام العربى.

ويقول فى تعريف التجنيس وتوضيحه: " إنما سمى هذا النوع من الكلام مجانسا لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد. وحقيقته أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا... وعلى هذا فإنه هو اللفظ المشترك... "[3] .

ثم ذهب ابن الأثير إلى أبعد من ذلك حيث قام بالربط بين فن التجنيس وبين وضع اللغة، فاللغة العربية عند ابن الأثير وضعت للبيان والتحسين:

---

(١) المثل السائر ١:٥٦، طبعة نهضة مصر.

(٢) المرجع السابق ١:٣٤٢.

(٣) المرجع السابق

" والواضع لهذه اللغة العربية التى هى أحسن اللغات، نظر إلى ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر، ورأى أن من مهمات ذلك التجنيس، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة التى هى كل اسم واحد دل على مسميين فصاعدا، فوضعها من أجل ذلك " [1] .

إن ابن الأثير وشغفه الشديد بزخرفة التجنيس وفنونه المختلفة دفعه أو قل ورّطه فى قضية من أهم قضايا اللغة، إلى أن يفسرها حسب هواه البلاغى، ويقول على أن واضع اللغة استهدف التحسين عند وضعها، ورأى أن التجنيس من وسائل هذا التحسين، فقام بوضع الأسماء المشتركة التى يقوم عليها التجنيس. وهو هدف لم يكن يدور بخلد واضع اللغة، وذلك إن سلمنا أنها وضعية. أما وضع الأسماء المشتركة فى اللغة فله أسباب أخرى ذكرها علماء اللغة، وليس منها بطبيعة الحال هذا الذى ذكره ابن الأثير، وهو التجنيس، فاللغة العربية كاللغات الأخرى وضعت فى الأصل للإبانة والتفاهم والتعبير، ولم يكن التحسين، ولا وسائل التحسين كالتجنيس وغيره من أهداف واضعها. وأما ما قاله من حسن اللغة العربية وجمالها فإنه أمر يرجع إلى طبيعة هذه اللغة الأصيلة، وليس استهداف التحسين بجميع وسائله إلا شئ طارئ فى عصور الصنعة اللفظية حينما وجه الكتاب والأدباء والنقاد عنايتهم واهتمامهم إلى الألفاظ دون المعانى، وبخاصة فى العصور المتأخرة التى عاش فيها ابن الأثير الذى دفعته ثورته إلى التجديد والابتداع، ولكنها أوقعته فى عثرات كان فى غنى عنها، وأنزلته من علياء كان يحل بها لولاها، فادعى ما

---

(١) المرجع السابق ١: ٥٨.

ليس له،حتى قال ما قاله فى وضع اللغة العربيـة. وعلـى كـل حـال فـالرأى الشـاذ الذى ذهب إليه فى سبب وضع اللغة، وما فيها من الأسماء المشتركة إنما يـدل علـى مقدار شغفه الشديد بالتحسين اللفظى بوجه عام، وبفنون التجنيس بصفة خاصة.

ولايقف ابن الأثير عند إبدائه إعجابا غيرمباشر نحوالتجنيس وفنونه، بل نـراه يصرح بهذا الإعجاب فى الفصل الذى عقده للتجنيس حيث يستهله قائلا: " اعلم أن التجنيـس غـرة شـادخة فىوجـه الكـلام "[1] كمـا مـر، ثـم يعـود بعـد ذلـك، ويكررکثيرا من عبارات الاستحسان والتمجيد لهذا النوع من الألـوان البديعيـة[2]، ويوجه الدعوة للنقاد والأدباء والبلاغيين ليقلدوه فى ذلك.

وهنا يجب أن نتساءل: لماذا أبدى ابن الأثير اهتمامه الكبير بالتجنيس إلى هذا الحد ؟ لعل سبب ذلك يرجع إلى ميله الطبيعى وذوقه الأدبـى إلى الصنعـة اللفظيـة، والبديع باعتباره المذهب المعروف للصنعة الأدبية، والتجنيس يعتبر أبرز ألوان البديـع وفنونه، وبالإضافة إلى أن التجنيس فضلا عما يعطيه من وقع موسيقى مـوزون فـى الجملة، فإنه إلى جانب ذلك أسهل صياغة، وأكثرسلاسـة مـن أى نـوع آخـر مـن أنواع البديع وألوانه الجميلة، ومن المعروف أن ابن الأثير كان يميل بذوقه المرهـف، وبحسه الرقيق إلىالبساطة والوضوح، وينفر من التعقيـد والغمـوض، ويتـأذى لكـل غريب شاذ يخرج عـن النسـق، ويطـرب لكـل رقيـق سلس يتجـاوب معـه نفسـه وشخصيته الأدبية. وبسبب كـل ذلـك عـاب علـى الحريـرى مـا جـرى عليـه مـن

---

(١) المثل السابق ١: ٣٤٢

(٢) المرجع السابق١: ٣٤٢ – ٣٤٩.

الغموض والتعقيد، ومن أجل ذلك فسر الفصاحة بأنها ظهورالألفاظ مع حسنها[1]. أضف إلى كل ذلك ما تقد م من شغف ابن الأثير بالسجع ودفاعه عنه، ومن الواضح أن التجنيس من أقرب الألوان البديعية إلى السجع فى صياغته، بل يعتبر مرحلة تالية له، أو فرعا من فروعه، ولهذا يصح القول أن شغفه بالسجع استلزم شغفه بشبيهه وهو فنون التجنيس لأن الألفاظ المتجانسة مستعذبة ظريفة تليق بالمعنى الظريف، وابن الأثير يمشى وراء ذوقه فى تقدير التجنيس واستحسانه له وتكبيره.

ونزيد على ذلك ماورثه ابن الأثير، وعصره الأدبى من نماذج التجنيس فىالأدب والنقد، واستحسان البلاغيين والنقاد والمتأدبين لها، الأمر الذى كان له أثره العميق فى دفع ابن الأثير وغيره من أدباء عصره إلى حب التجنيس والاهتمام به. وهذا أبو القاسم الحسن الآمدى يعرف التجنيس، ويورد له الأمثلة من الشعر القديم والحديث، ويذكر ماقاله ابن المعتز ومعاصروه فى هذا الفن، ورآه أبو تمام شريفا ظريفا فى أشعار الأوائل فاعتمده وجعله غرضه، واستكثر منه، وبنىمعظم شعره عليه، وجد فى طلبه[2] . فمن المعقول أن تكون عناية ابن الأثير بالتجنيس شديدة، وتأثره به عظيما واستحسانه له كبيرا.

---

(١) المرجع السابق: ١: ١١٤.

(٢) طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الكتب العربية،بيروت.

ولكن ما مقدار تأثر ابن الأثير فى تناول التجنيس بالأدباء والنقاد ؟ والجواب عن هذا السؤال: هو أن عصر ابن الأثير ورث من التجنيس نماذج مختلفة وعديدة من العصور السابقة، وبصفة خاصة من أصحاب البديع من الشعراء الأقدمين والمحدثين، بل ورث ذخيرة هائلة من شعراء اتخذوا التجنيس مذهبا لهم كأبى الفتح البستى[1] من علماء وشعراء أفغانستان القديمة المعروفين، ومن ذهب مذهبه فى البديع، وذلك بالإضافة إلى ما كان لشعراء عصره من مشاركة فعالة نشطة فى التفنن فى هذا اللون كالقاضى الفاضل وغيره من علماء عصره، ومن مؤدبيه، وكتابه البارزين. فلما جاء ابن الأثير، وهو أديب، وناقد، وبلاغى، وكاتب، وهو صاحب ذكاء وقاد كان عونا له على الكشف والتحقيق، والتحليل والمقارنة والتجديد، كان لابد له وهو يتناول موضوع التجنيس وفنونه أن يستحضر فى ذهنه الوقاد كل ما يتصل بهذا الموضوع البلاغى الهام من هذا التراث النقدى والبلاغى الضخم، وأن يستعين به على تفريع الكلام فيه، وأن يستمد لكل فرع من تلك الفروع ما يشاء من الشواهد والأمثلة التى تنطبق عليه، ومما يؤكد تأثره بالأدب والنقد أن شواهده المختلفة والعديدة التى ساقها لكل قسم من

---

(١) أبو الفتح البستى: هو أبو الفتح على بن محمد (أحمد) البستى الشاعر المبدع الذى كان ينشد الشعر بالعربية، والدرية الأفغانية (الفارسية)، وقد عمل رئيسا لديوان الأمير بايتوز صاحب إمارة بست فى أفغانستان الغربية. وقد توفى سنة ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م. وبست مدينة تاريخية قديمة تقع بين كندهار (قندهار) وهرات فىغرب أفغانستا.

أقسامه المختلفة مما حفظه من الأدب، وليست منقولة من كتب البلاغيين السابقين والكتاب الأقدمين.

وإذا كان ابن الأثير قد تأثر بالأدباء فى هذه الناحية، بما أمدوه به من صور ونماذج مختلفة منه، فإنه قد تأثر أيضا بالبلاغيين والنقاد، وبخاصة فى تمجيده وإشادته بالتجنيس وفنونه[1]، وفى تلك المناقشة التى أثارها مع بعض البلاغيين[2]، ومع تأثره بالنقاد والبلاغيين فإن الطابع الغالب على تناوله للتجنيس هو الطابع الأدبى، وذلك هو المذهب المعروف لديه فى الصنعة اللفظية البديعية بصفة عامة.

نعم، قد تأثر ابن الأثير فى تناوله للتجنيس بالطابع الأدبى أولا، ثم بالطابع البلاغى والنقدى بالدرجة الثانية، فهل أثّر بهذا الباب فى الأدباء والنقاد والبلاغيين المتأخرين الذين جاءوا بعده ؟ والمتصفح للأدب والنقد والبلاغة منذ عصر ابن الأثير يلاحظ بصورة واضحة انتشار التجنيس واحتلاله المقام الأول، والمكانة الأولى فى المجالات الأدبية والنقدية والبلاغية إلىأن شاركته التورية[3] فى مكانته المرموقة، ثم وصل الأمر بها إلى أن قامت بانتزاع تلك المكانة من التجنيس. ومع هذا، أى مع ظهور التورية وسيادتها للألوان البديعية فى الأدب، واستيلائها على مكانة التجنيس، فقد ظل الشعراء العرب شغوفين متشبثين بالتجنيس بحيث لم تخل منه

---

(١) الثعالبى: يتمية الدهر ٤: ٣٠٢.

(٢) راجع هذه المناقشة فى المثل السائر ١: ١١٢ - ١٢٠، طبعة نهضة مصر.

(٣) التورية: أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان، قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفى هو المراد.

قصائد الشعراء، حتى قصائد شعراء التورية أنفسهم، بل وجد من الشعراء من التزمه مذهبا له فى شعره كصلاح الدين الصفدى. وقد التزمه أصحاب الموشحات فى كثير من موشحاتهم بكاملها، ولا يمكن تعليل هذه الظاهة البلاغية البديعية من غير أن نضع فى الاعتبار ما كان لابن الأثير، ولطابعه الأدبى والبلاغى فيها من الأثر، وهو الذى يقول فى الإشادة بالتجنيس، وفى الدعاية له: " التجنيس غرة شادخة فى وجه الكلام " [1] .إن الغرة الشادخة تترك أثرها الجمالى والفنى فى وجه الفرس إذا شدخت وانتشرت فيه.

فالتجنيس عند ضياء الدين بن الأثير يمثل حلقة من حلقات الاتصال، وهى همزة الوصل بين البلاغيين والنقاد، وبينهم وبين الأدباء والكتاب، إذ أن ابن الأثير قد تأثر فيه بالأدباء والنقاد والبلاغيين السابقين على ترتيب الدرجات، واستطاع أن يترك أثرا بالغ الأهمية فى المتأخرين من الأدباء والنقاد والبلاغيين،.كما ترك أثره فى الأدب والنقد والبلاغة، وفى الكتابة الفنية والإنشاء.

المغالطات والأحاجى والألغاز:

تحدثت فيما سبق من موضوعات ابن الأثير البلاغية .. عن السجع والتجنيس، وكلاهما من الموضوعات البديعية الفنية التى شاعت وانتشرت فى الفن الأدبى وفى البلاغة العربية فى العصور الأدبية السابقة. ومن المناسب الآن أن أتحدث، وأتناول بالبحث بعض موضوعاته الجديدة التى لم تظهر قبله بصورة

---

(١) المثل السائر ١: ٣٤٢، طبعة نهضة مصر.

واضحة فى الأدب، وبالتالى لم يتنبه لها البلاغيون والنقاد السابقون بشكل واضح منظم، وإنما تنبه لها ابن الأثير بدافع وجودها فى الأدب المعاصر له، حيث إن الفن الأدبى الذى ساد ذلك العصر كان فن زينة غلب عليه طابع الزخرفة اللفظية، ومن تلك الموضوعات الزخرفية اللفظية الجديدة المغالطات المعنوية، والأحاجى، والألغاز الأدبية.

المغالطات:

والمغالطات[1] هى التى عرفت عند غيره بالتورية[2]، والإيهام، والتوحيه، والتخييل، ويعتبر ابن الأثير أول من تحدث بإفاضة فى هذا الموضوع البديعى من البلاغيين والنقاد حيث لم يكن هؤلاء النقاد والبلاغيون يعنون بهذا النوع من الفنون البلاغية كثيرا. فأسامة بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤هـ) تحدث عنها حديثا موجزا سطحيا فى بديعه[3]، كما تحدث قبله ابن رشيق القيروانى (المتوفى سنة ٤٦٣هـ) عنها حديثا مجملا لم يعرف فيه التورية، ولكنه مثل لها[4] . وكل من

---

(١) المغالطات: يقول ابن الأثير: " وهذا النوع من أحلى ما استعمل فى الكلام وألطفه لما فيه من التورية، وحقيقته أن يذكر معنى من المعانى له مثيل فى شئ آخر ونقيض، والنقيض أحسن موقعا وألطف مأخذا... " راجع المثل السائر ٣: ٧٦.

(٢) التورية: وهى أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفى هو المراد

(٣) البديع فى نقد الشعر ٦٠.

(٤) العمدة ١: ٣١١، والدكتور عبد الرازق أبو زيد زايد: علم البديع نشأته وتطوره ٣١٤ وما بعدها.

ذكرها قبل ذلك كان يذكرها عرضا، إذا صادفته عبارة تتصل بها. ولعل أول من فعل ذلك أبو هلال العسكرى فى الصناعتين. وسبب ذلك أن التورية لم تكن معروفة ولا منتشرة فى الأدب العربى بشكل معتمد واضح المعالم من قبل، فهى طريقة جديدة فى التعبير الأدبى فى أدب ابن الأثير ومعاصره القاضى الفاضل، كما أكد ذلك ابن حجة الحموى حيث قال: "... لأن هذا النوع أعنى التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب. ولعمرى أنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أعلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث فى القلوب ويفتح لها أبواب عطف ومحبة. وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول "[1].

والمغالطات أو التورية نوع من البديع المعنوى قصدها المتأخرون من الأدباء والشعراء فعنوا بها، وتنافسوا فى الإكثار منها، والتفنن فيها، ووشحوا بها كلامهم[2]، فكانت النتيجة أن تنبه لها البلاغيون والنقاد، ويعتبر ابن الأثير فاتح باب التورية أو المغالطات لهؤلاء جميعا، وقد شاركه فى ذلك معاصره القاضى الفاضل. ومعنى هذا أن البلاغيين والنقاد قد تأثروا فى ذلك بأدب الأدباء، وبشعر

---

(١) خزانة الأدب ٢٣٩، والدكتور أحمدمطلوب: فنون بلاغية . البيان والبديع ٢٩٣ وما بعدها.

(٢) الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: شعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، رسالة الماجستير غير مطبوعة، رقم٢٢٦٢، مكتبة جامعة القاهرة.

الشعراء، إذ لولا انتشار التورية والمغالطات فى الأدب، لما عرفت فى البديع، أو لما لقيت ما لقيته من عناية علماء البديع بفنون التورية، أو المغالطات فى العصور المتأخرة، ولعل تقى الدين بن الحجة الحموى من أكثر رجال البديع المتأخرين اهتماما بالتورية، وذلك فى كتابه خزانة الأدب[1] .

وقد شغف ابن الأثير بالمغالطات المعنوية أو التورية حبا، وتحمس لها واهتم بها واعتبرها من " أحلى الكلام وألطفه " [2]، وأطال القول فيها وأطنب، وأكثر من عرض الشواهد المختلفة لها، وهو فى أثناء ذلك يحاول لفت الأنظار والاهتمام إلى ما لها من حسن[3] فى الكلام، وروعة فى الأسلوب، وجمال فى المعنى، ولاشك فى أن هذا الترحيب والتشجيع والاستحسان كان له أثره الكبير فى الأدباء المتأخرين، إذ شجعهم على الإكثار منها، وتزيين كلامهم بها. هذا بجانب عوامل أخرى لانتشار فنون التورية والمغالطات فى الأدب، لا يسع المجال والبحث لذكرها بالتفصيل والتوضيح وبالشرح والتفسير.

وبناء على ذلك فقد لعبت قضية التأثير والتأثر دورها فى تناول ابن الأثير التورية أو المغالطات المعنوية، فقد تأثر فى دراسته للتورية أو للمغالطات بالأدباء المتقدمين فى عصره، وكذلك قد أثر بدراسته هذه فى المتأخرين منهم. وقد أدى

---

(١) الدكتور عبد العزيز عتيق: علم البديع ١٢٥،طبعة دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م.

(٢) المثل السائر ٣: ٧٦، وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ٣: ٧٦- ٨٤.

الإعجاب بها، والإكثار منها والمبالغة فى استعمالها، والتكلف فى فنونها إلى فساد الكثير من شعر المتأخرين وأدبهم الفنى.

وفن التورية أو المغالطات المعنوية من الفنون البديعية التى تحتاج إلى معرفة واسعة فى اللغة والأدب، وإدراك عميق، وربط دقيق بين المعانى والصور، وإلى ذوق أدبى رقيق، وذلك بالإضافة إلى الموهبة، وهذه الصفات كلها قد اجتمعت فىتكوين شخصية ابن الأثير البلاغية، وهى بالتالى سر اهتمامه بالتورية أو المغالطات لأنها من الفنون التى تخدم الأديب الموهوب حينما لا يريد الإفصاح عن المغزى والمعنى الذى يريد توريته، وهىمن أحلى ما استعمل فى الكلام وألطفه[1] فنا وجمالا ورونقا.

الأحاجى والألغاز[2]:

إن الأحاجى والألغاز من الفنون البلاغية والأدبية التى أبدى ابن الأثير اهتمامه بها، حيث خصص لها بابا خاصا فى كتابه الشهير " المثل السائر فىأدب الكاتب والشاعر"[3] وهى فى الحقيقة نوع من الفنون الكلامية يتصل بالمغالطات المعنوية أو التورية، ويلتبس بها التباسا يجعله وثيق الصلة بها، وحديث ابن الأثير عن هذا النوع من الفنون الجمالية بإسهاب، واهتمامه به اهتماما بالغا يدل

---

(١) المرجع السابق ٣: ٧٦.

(٢) الأحاجىوالألغاز شئ واحد، وقد يسمى المعمّى أيضا.المثل السائر ٣: ٨٤.

(٣) ٣: ٨٤، طبعة نهضة مصر.

بوضوح على صلة البلاغة والنقد بالأدب، وتأثرهما به.وذلك لأن الأحاجى والألغاز لم تكن موجودة بشكل ملحوظ، وبصورة واضحة فى العصور الأدبية السابقة حينما كان الشعر شعرا، فلما انحرف شعر الشعراء عن الطريق والهدف، وتاه فى متاهات التلاعب بالألفاظ، وصارت من غاياته الرئيسية، وأهدافه الأساسية التسلية والسلوان، وإظهار البراعة اللفظية عن طريق التفنن فى التلاعب بالألفاظ والمعانى، والعبث بهما بطرق المهازلة المختلفة، ووسائل المداعبة اللفظية الشتى، حينئذ وجدت فنون الأحاجى والألغاز طريقها إلى الشعر والنثر أيضا وكان من الطبيعى أن تتأثر الفنون البلاغية والنقدية بذلك، وأن ترصده البلاغة والبلاغيون، والنقد والنقاد فيما ترصده البلاغة والنقد من الأساليب الأدبية، وتهتمان ببحث ودراسة مثل تلك الأساليب، وكان لابد لابن الأثير – وهو البلاغى البارع، والناقد القدير، والأديب البصير – أن يتأثر ويحس بذلك، وأن يقوم برصده وفاء لما تقتضيه منه مسئوليته النقدية، ووظيفته البلاغية. وقد قام بذلك العمل النقدى والبلاغى حيث خصص للأحاجى والألغاز بابا فى كتابه " المثل السائر " [1] تحدث فيه عن فنون الأحاجى والألغاز، حتى أغرب فى حديثه إغرابا إلى حد الإفراط لم يعرف لكاتب من قبله، ولكن ليس معنى هذا أن الألغاز والأحاجى لم يأت ذكرها فى كتب السابقين، فقد كانت تعد فنا طريفا جميلا منذ أن ساق الحريرى فيها إحدى مقاماته[2]، ويبدو أن العناية بها قديمة إذ نجد صاحب

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٣٣٢، دار المعارف سنة ١٩٦٥م.

نقد النثر يعقد لها فصلا خاصا[1]، ومن قبله عرض لها الجاحظ[2] فهؤلاء وغيرهم من النقاد العرب قد مهدوا الطريق لابن الأثير ليفصل القول فى الألغاز والأحاجى بالإضافة إلى تأثره بهم، وبأدب عصره وأدبائه. وفى كتاب ابن الأثير " المثل السائر " قرينة تدل دلالة واضحة وصريحة على تأثره بأدب عصره فى دراسته النقدية والبلاغية الفنية للغز، وهى أنه ربط بين اللغز وبين الألفاظ الأجنبية كالفارسية والتركية[3] . ومن المعروف أن علاقة العربية وفنونها القولية بهاتين اللغتين وبفنونهما الجمالية علاقة جوار قديمة، وكانت قد تسربت منهما بعض الألفاظ إلى الأوساط العلمية والأدبية، بل وإلى الأوساط العامة أيضا فى الأقطار العربية التى كان لها اتصال واحتكاك بأصحاب هاتين اللغتين فى الشرق والغرب من البلاد العربية، وكان الأدباء والعلماء يستعملون هذه الألفاظ الدخيلة على سبيل التظرف، والتلطف، وكانت الألغاز والأحاجى من الوجوه الظريفة واللطيفة التى قاموا باستعماله فيها كذخيرة جديدة لهذا الفن.وبهذا يتضح لنا دون ريب أن وجود هذه الظاهرة الجديدة فى الأدب العربى فى هذا العصر، وعلى هذا النحو

---

(١) كتاب نقد النثر هو " كتاب البرهان فى وجوه البيان " لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب. راجع مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، المجلد الرابع والعشرون ص٧٣، وشوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ص٩٣، ودكتور عبد الرازق أبو زيد زايد: علم البديع ص١٥٠، القاهرة ١٩٧٧م.

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٤٨، والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٥٣، والدكتور عبد العزيز عتيق: علم البديع ١٧٤، بيروت ١٩٧٤م.

(٣) المثل السائر ٣: ٨٤ – ٩٦، طبعة نهضة مصر.

الذى أشرنا إليه من الأسباب الرئيسية التى دفعت ابن الأثير إلى تناولها فى بحثه ودراسته للألغاز والأغاليط الفنية حيث جعلهما نوعا منها[1]، وقد فاق فى ذلك غيره من أقرانه من النقاد والبلاغيين، وحاز فيه قصب السبق.

وإذا كان ابن الأثير قد تأثر فى دراسته للألغاز والمعميات الفنية بما طرأ على الأساليب الأدبية، والفنون الجمالية فى عصره، فإنه قد أثر بدوره فيمن أتى بعده من الأدباء والبلاغيين والنقاد المتأخرين، يتضح ذلك جيدا من المقارنة الفنية بين ما كان من الألغاز والأحاجى قبله، وبين ما جد منها بعده فى العصور الأدبية المتأخرة.

ولكن قبل إجراء عملية المقارنة الفنية لابد لنا أن نقف على وجهة نظر ابن الأثير فى اللغز والأحجية، وتتلخص هذه الوجهة فى أنه قاس اللغز بمقياس التعقيد وعدمه، فما كان منه معقدا: " لا يستخرج إلا بمسائل الجبر والمقابلة، أوبخطوط الرمل من القبض الداخل أو القبض الخارج، والبياض والحمرة وغيرها "[2] فهو قبيح بارد، بل لا يعد فى نظره من اللغة العربية " فضلا عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة، ولافرق بينه وبين لغة الفرس والروم وغيرهما من اللغات فى عدم الفهم"[3]، وأما ما كان خاليا مجردا من التعقيد والالتواء فهو حسن لطيف عنده،

---

(١) المثل السائر ٣: ٨٦، طبعة نهضة مصر.

(٢) كل هذا من مصطلحات علم الرمل الذى كان شائعا ومنتشرا فى عصر ابن الأثير.

(٣) المثل السائر ٣: ٩٠، طبعة نهضة مصر.

ويؤكد ذلك أن النماذج التى استحسنها من الألغاز والأحاجى ليس فيها تعقيد، ولا تشتمل على الغموض والالتواء والإخفاء المعقد[1] والإبهام.

فإذا قام الباحث والدارس بعد ذلك بتتبع فنون الألغاز والأحاجى عند الأدباء المتأخرين[2]، وقام بمقارنتها بعد الدراسة والبحث، فإنه يجدها فى عمومها، وبصفة عامة مع النماذج التى استحسنها ابن الأثير، ورأى فيها مسحة من البلاغة، وحسنا من الجمال، ولا يجد فيها طابع التعقيد والالتواء المغرب الذى استقبحه والذى اتسمت به الألغاز والأغاليط قبله وهذا الأمر يدل بوضوح على أن المتأخرين من الأدباء والبلاغيين والنقاد قد تأثروا بابن الأثير فى صياغتهم للألغاز والمعميات وفى توخيهم السهولة والبعد عن التعقيد والغموض المفرط فيها أو الإيهام فى أساليبها.

وبالإضافة إلى ذلك فابن الأثير بربطه بين الألغاز والأحاجى والألفاظ الأجنبية كالفارسية والتركية، قد شجع المتأخرين من المتأدبين على فتح مجال آخر للأغاليط والمعميات، فأصبح الباحث يجدكثيرا من هذا النوع من الألغاز فى أدبهم. ولا يمكن تعليل ذلك كله إلا بتشجيع ابن الأثير الكبير لهؤلاء الأدباء، وأثره الأدبى والنقدى فيهم. وذلك بدليل كثرة وجود الألغاز فى الأدب منذ عصر ابن الأثير بشكل وافر لا مثيل له فى العصور الأدبية السابقة، وإذا حاولنا معرفة أسباب ذلك

---

(١) راجع على سبيل المثال لا الحصر لغز الخلخال فى المثل السائر ٣: ٨٩، طبعة نهضة مصر.

(٢) راجع الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: شعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، رسالة الماجستير غير مطبوعة، رقم ٢٢٦٢، مكتبة جامعة القاهرة.

فإننا لا نستطيع أن نتجاهل تأثير ابن الأثير الأدبى الذى تركه فى ذلك تشجيعه، وذلك لأن استحسانه للألغاز وتشجيعه لها، وإعجابه بها، وإشادته بفائدتها العقلية والفكرية، وتفصيله القول فيها بما يفتح أمام الأدباء والبلاغيين والنقاد منافذ كثيرة تؤدى إليها، كل ذلك وغيره من الأسباب لابد أن يكون له وزنه الفنى، عند المتأخرين، ولابد أن يغريهم بالألغاز والأحاجى، والتوسع الكبير فى استعمالها بطرق شتى، وفى الفنون النثرية والشعرية معا، ذلك لأن اللغز: " إنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة، ويحد الخاطر، لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج فى استخراجها إلى توقد الذهن، والسلوك فى معاريج خفية من الفكر، وقد استعمله العرب فى أشعارهم قليلا، ثم جاء المحدثون فأكثروا منه "[1] .

وقد أخذت الألغاز والأحاجى بعد ذلك تخطو خطوات واسعة، وتطفر طفرة بعيدة المدى على أيدى رواد البديع من أمثال ابن أبى الإصبع المصرى[2]، وغيره من أصحاب البديع الذين أتوا بعد ابن الأثير[3] .و بهذا يتضح بأن ابن الأثير الوزير الناقد كان له أثر واضح فى الألغاز والأحاجى من الجوانب الآتية.. من ناحية أساليبها وموضوعاتها، ومن ناحية الكم والكيف. أما ترويج ابن الأثير لهذا

---

(١) المثل السائر ٣: ١٠٥، الطبعة الثانية، دار الرفاعى، الرياض ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٢) الدكتور أحمد إبراهيم موسى: الصبغ البديعى فى اللغة العربية، القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م

(٣) فقد تأثر بابن الأثير الخطيب القزوينى فى فن البديع بصفة عامة، وذلك فى كتابه الشهير تلخيص المفتاح. راجع الصبغ البديعى فى اللغة العربية للدكتور أحمد إبراهيم موسى، ص٣٠٤.

المسلك، ودعوته له، فذلك أثر من آثار إعجاب النقاد والكتاب والبلاغيين فى هذه العصور[1]، وفى العصور التالية بهذه الألوان، من الفنو القولية التى طبعتهم بطابعها، وهذا الإعجاب هو الذى دفع ابن الأثير ومن سلك مسلكه إلى الإسراف فى تشجيع واستعمال الألغاز والأحاجى فى الأدب العربى، ومن هنا كانت الأغاليط والمعميات على حظ عظيم من الرواج والذيوع والانتشار فى تلك العصور، وحسبك أن تمر بخزانة الأدب للحموى، ونفحات الأزهار للنابلسى لتقف على مبلغ رواج هذا اللون من الأحاجى فى العصور التى أعقبت عصر ابن الأثير، وابن الأثير يعتبر زعيم هذه الطريقة، وبانيها والداعى إليها بحماس وإخلاص.

ولا ينبغى أن ننسى ثقافة الأدباء فى هذا العصر، وهو عامل مؤثر آخر من العوامل التى لم تكن سببا من أسباب كثرة الألغاز فى الأدب، وذيوعها فيه فحسب، وإنما كان سببا فى تغيير مفهوم الأدب عند الأدباء والنقاد، بل كان سببا فى انحراف هؤلاء جميعا فى إدراك فهم الأدب، واعتقادهم أنه البراعة فى التصرف فى الألفاظ، والتلاعب بالأساليب والمعانى والعبارات، وقد سلك الأدباء من أجل تحقيق هذا الفهم اللفظى الخاطئ سبلا مختلفة أهمها الألغاز والأحاجى. وما دمنا قد تعرضنا لكثرة الألغاز فى آداب العصور المتأخرة، وتعرضنا لدور ابن الأثير فى ذلك، فمن الضرورى جدا أن نقوم بالإشارة إلى هذا العامل الثقافى حيث إنه على

---

(١) الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، رسالة ماجستير غير مطبوعة، رقم ٢٢٦٢ مكتبة جامعة القاهرة.

جانب كبير من الأهمية فى هذا المجال، والذى جعل لهذا العامل الذى نتحدث عنه أثرا قويا فى شيوع الألغاز والأحاجى فى الأدب، شيوعا أوشك أن يجعلها بابا من أبوابه، أنه مرتبط بمكونات ثقافة الأدباء، وبعناصر تفكيرهم الرئيسية، ذلك لأن الألغاز كانت قد شاعت فى العلوم التى كان يتعلمها الأدباء، أو يلمون بأطراف منها سواء فى ذلك العلوم اللغوية والفقهية، والفنون الأدبية والقولية.

فالنحويون مثلا كان لهم فى هذا المجال نصيب كبير، حيث كانوا يقومون بصياغة ألغازهم النحوية أحيانا فى أبيات ينظمونها، على نحو ما فعل ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦هـ[١] . كما أن منهم من ألف فى ذلك الكتب كالزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ[٢]، وأبى المعالى سعيد بن على الوراق الخطيرى المتوفى سنة ٥٦٨هـ[٣]، وعلم الدين على بن محمد السخاوى الدمشقى المتوفى سنة ٦٤٣هـ[٤]، وابن هشام الأنصارى المتوفى سنة ٧٦١هـ[٥] . وكان علماء الفقه

---

(١) المنهل الصافى٢: ٣٧١، وذيل الروضتين ١٨٢، والقصيدة المؤنثة ٢٦، تحقيق الدكتور طارق نجم عبد الله.

(٢) له فى الألغاز كتاب " المحاجات بالمسائل النحوية " ومنه فى دار الكتب المصرية نسختان مخطوطتان إحداهما برقم ٢٨ش، والأخرى برقم ١١٦ مجاميع.

(٣) له فى الألغاز كتاب " الإعجاز فى الأحاجى والألغاز " وقد مدحه صاحب الخزانة كثيرا.

(٤) قد قام بشرح متن الزمخشرى، والتزم فيه أن يعقب كل أحجيتى الزمخشرى بلغزين من نظمه.

(٥) له فى ذلك كتابه المشهور " الألغاز النحوية "

الإسلامى قد أحالوا كثيرا من المسائل الفقهية إلى حيل[١] وألغاز بغرض التعجيز، وإظهار البراعة الفقهية فى عمق التعبير، ودقة العبارة، وكان أكثر ما يجرى من ذلك فى حلقات الدروس والمناظرات الفقهية، وقد سبكوا بعض تلك الألغاز فى عبارات وأساليب شعرية، وقوالب منظومة [٢]، وبالإضافة إلى كل ذلك فإن ألغاز الحريرى المتوفى سنة ٥١٦هـ، وأحاجيه الأدبية والفقهية المختلفة قد عمت الآفاق، إذ كانت مقاماته موضع اعتماد كل أديب، فقد نظم فى المقامة السادسة والثلاثين عشرين أحجية، وقال إنه وضع لامتحان الألمعية، واستخراج الخيمة الخفية[٣]، ولبديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة٣٩٨هـ[٤] ثلاث مقامات فى الألغاز، وهى الصفرية والعراقية والشعرية[٥]

ومعنى ذلك أن البيئة الثقافية التى كان يعيش فيها الأديب كانت مشبعة بالألغاز والأحاجى، فمن الطبيعى إذن أن يتأثر الأديب بتلك البيئة، وتؤثر البيئة فى

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى كتاب ابن سناء الملك، ص٩٧.

(٢) من أمثلة ذلك ما نقله ابن الأثير فى كتابه المثل السائر ٣: ٨٨ – ٨٩، طبعة نهضة مصر.

(٣) الدكتور أحمد إبراهيم موسى: الصبغ البديعى فى اللغة العربية ٢٧٣، القاهرة، سنة ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.

(٤) الدكتور محمد أمان صافى: الأدب العربى فى أفغانستان .. ٢: ٧٩٧ – ٨٠١، رسالة دكتوراه غير مطبوعة، والثعالبى: يتيمة الدهر ٤: ١٩٥ – ٢٥٦، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.

(٥) عبد الحى كمال: الأحاجى والألغاز الأدبية ٥٧، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠١هـ، من مطبوعات نادى الطائف الأدبى.

أدبه، وأن يظهر أثر عملية التأثر والتأثير فى آداب تلك العصور، كما هو من الطبيعى أن يتأثر البلاغى والناقد بتلك البيئة الملغومة بالألغاز، ويظهر هذا التأثر فى استحسان الأدباء والكتاب للألغاز والأحاجى، وتشجيعهم الشعراء عليها، نظرا لتأثير البيئة الأدبية التى كانوا يعيشونها. ومعنى ذلك أن الجو الثقافى العام الذى كان تسيطر عليه فنون الألغاز والأحاجى والتورية والرمز قد أثر فى ابن الأثير وفى غيره من أدباء عصره تأثيرا كبيرا الأمر الذى ظهر أثره واضحا فى الفنون الأدبية المتأخرة واللاحقة.

فعند وقوفنا على كل ما سبق عن ابن الأثير من الزوايا الأدبية والنقدية والبلاغية يتبين لنا بوضوح أنه كان – رحمه الله – أديبا وناقدا وبلاغيا بالإضافة إلى كونه كاتبا من الكتاب البارعين، ومعنى ذلك أنه اتجه فى تأليفه البلاغى والنقدى اتجاها أدبيا حيا، بأن استعان كثيرا وقدر الإمكان فى قواعده البلاغية، وآرائه النقدية، وأصوله الكتابية بالأدب الذى كان يعيشه، وتأثر به فى معالجة تلك القواعد والآراء والأصول، وقد تمكن بذلك من أن يترك أثرا حيا عميقا بعيد المدى فى الأدباء والنقاد والبلاغيين وكذلك فى الكتاب وكتابتهم الفنية.

بقى أن أتساءل: لماذا اتجه ابن الأثير فىتأليفه البلاغى والنقدى هذا الاتجاه الأدبى ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نضع فى اعتبارنا العوامل الرئيسية الثلاثة.. عامل الطبع، وعامل الثقافة، وعامل الغرض من التأليف.

أولا – عامل الطبع وسلامته: كان ابن الأثير أديبا بطبعه، ذواقا للفنون الأدبية بسليقته الفطرية، صاحب ذوق أدبى رفيع، وملكة أدبية قوية، وموهبة وقادة ناضجة، فوجود مثل هذا الطبع السليم فيه هو الذى أعانه وساعده على أن

يكون أديبا ناجحا، وكاتبا بليغا، ومنشئا مجيدا ومشهورا فى عصره، ومن كان كذلك فلابد أن يصدر فى أعماله البلاغية والنقدية والفنية عن هذا الطبع الأدبى، وأن يحتكم فيها إلى ذوقه وملكته وموهبته التى شبهها بالنار الكامنة فى الحجر[1] . ومن الضرورى أيضا أن تتسم أعماله البلاغية والنقدية والكتابية بطابع الأدب الصادر عن تلك القوة الخالقة التى كان يتمتع بها، والتى سماها " الفيض "[2] . فكل من يتمتع بمثل تلك القوة الخالقة فهو صاحب الطبع الذى يكسب أدبه الرونق والجمال، والروعة الأدبية.

ثانيا – عامل الثقافة والمعرفة: أما عن عامل العلم والثقافة والمعرفة فإن ابن الأثير الوزير الكاتب – كما يبدو ويتضح من مؤلفاته الأدبية، وحياته السياسية – قد قام بتغذية ملكته الأدبية، وعبقريته الفذة بثقافة واسعة، وبمعرفة وفيرة، فهو غزير العلم، وافر الحظ، طويل الباع فى الكتابة والنقد والبلاغة، وفى الفنون القولية الأخرى، فقد قرأ قديم الشعر وحديثه، وقف من هذا وذاك على كل ديوان ومجموع، وأنفذ شطرا كبيرا من العمر فى المحفوظ والمسموع، وقد اطلع على جل ما كتب قبله من العلوم العربية، وفنونها المختلفة، فقد استنفع بمؤلفات

---

(١) الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد٦٤،طبعة نهضة مصر.

(٢) المرجع السابق ٣٤٥.

ابن المعتز[1]،وقدامة بن جعفر[2]، وأبى هلال العسكرى[3]، وابن أفلح البغدادى[4]، وابن جنى[5]، وابن حمدون البغدادى[6]، وبغيرهم ممن إذا طلبتهم بين ثنايا كتابه " المثل السائر " لم يفوتوك[7]، كذلك قرأ ما يتصل بعلوم القرآن الكريم للإمام الغزالى[8]، والعلامة الزمخشرى[9]، وحدث بكتب أخيه وأكثرها فى الحديث[10]،

---

(١) فى كتابه " البديع " . راجع الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٦٤، طبعة نهضة مصر.

(٢) فى كتابه " نقد الشعر " . راجع الدكتور أحمد إبراهيم موسى: الصبغ البديعى فى اللغة العربية ٢٥٥.

(٣) فى مؤلفه " كتاب الصناعتين " . راجع الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٦٥.

(٤) فى " مقدمته "، قال ابن الأثير: " وقفت على كتاب يقال له مقدمة ابن أفلح البغدادى، قد قصرها على تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة، وللعراقيين به عناية " . المثل السائر ١: ٣٤٧، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد٦٣.

(٥) فى كتابه " الخصائص " . راجع المثل السائر ١: ٣٦٦، والصبغ البديعى فى اللغة العربية ٢٥٥.

(٦) فى مؤلفه القيم " التذكرة ".

(٧) الدكتور أحمد إبراهيم موسى: الصبغ البديعى فى اللغة العربية ٢٥٥.

(٨) المثل السائر ٢: ٤٠٢.

(٩) فى تفسيره القيم " الكشاف " راجع المثل السائر ٤:٢ – ٥.

(١٠) ابن الساعى: الجامع المختصر٩: ٢٩٩.

وقرأ فى الفقه[١]، وفى اللغة والنحو وعلم البيان[٢]، وقرأ فى الأدب لأبى الفرج الأصفهان[٣]، ومقامات الحريرى[٤]، وفى الشعر ديوان الحماسة لأبى تمام، واللزوميات لأبى العلاء المعرى[٥]، وقرأ فى العلوم الطبيعية، كما عرف من اللغات الفارسية[٦]، والسريانية[٧] . فلاشك[٨] فى أن من كان على هذا القدر الكبير الجيد من الثقافة الأدبية والنقدية والبلاغية، بالإضافة إلى الثقافة الدينية الإسلامية الواسعة لابد أن يتأثر بها فى أعماله البلاغية والنقدية والكتابية وبالضرورة.

وبالإضافة إلى كل ذلك فإن ابن الأثير فى ثقافته البلاغية والنقدية، قد أعجب إعجابا كبيرا بالكتب النقدية والبلاغية التى يغلب عليها الطابع الأدبى الأصيل، والتى كان أصحابها يتمتعون بذوق أدبى متميز كالموازنة للآمدى، وسر الفصاحة

---

(١) المثل السائر ٢:٤٠٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥: ٢٥.

(٣) المثل السائر ١: ٣١٥، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد.

(٤) المصدر السابق ٢: ٢٢٤.

(٥) المصدر السابق ١: ٢٦٩، و٢٧٥.

(٦) الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٦٢، والمثل السائر ٢: ٢١٥.

(٧) المثل السائر ٢: ٢١٥، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٦٢.

(٨) الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: شعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، رسالة ماجستير غير مطبوعة، رقم ٢٢٦٢، مكتبة جامعة القاهرة.

لابن سنان الخفاجى[1]، واطلع على ما كتبه عبد القاهر الجرجانى، واقتبس منه، وادعى أنه من ابتكاره[2] . ومن الطبيعى إذن أن يتأثر بهذه الكتب وباتجاهاتها الفنية فى معالجته للنظريات البلاغية، والآراء النقدية والفنية الجمالية.

ثالثا – عامل الغرض من التأليف: والعامل الثالث من العوامل التى جعلته يتجه فى تأليفه ذلك الاتجاه هو عامل الغرض والهدف من التأليف البلاغى والنقدى، فإن ابن الأثير – كما يفهم من مواقفه العلمية والنقدية فى كثير من المواضع والموضوعات فى مؤلفاته – كان غرضه وهدفه من تأليفه البلاغى والنقدى أن يقوم بتربية ملكة الكاتب والشاعر والناقد جميعا، وأن يعلم المتأدبين إنشاء الأدب، وفن النقد، والمهارة فى البلاغة، وذلك بعد أن تحددت ملامح شخصيته الفنية فى الظهور بمظهر معلم الإنشاء والكتابة، ومربى المتأدبين والأدباء، وفى الفخر والاعتداد بتلك المظاهر، وهو يرى أن رأيه فى ذلك هو الصواب الذى لا يقبل الاعتراض، ولا يحتمل الشك، ويرى أن رسائله تجمع الفصاحة والبلاغة من أطرافها، وأن كتبه تجمع فنون الابتداع والإبداع من أساسها، ومن مظاهر الاعتداد، ومن إمارات الاعتزاز والفخر استشهاده بنماذج مما كتبه من إنشائه، حتى ملأ بذلك صفحات كتابه الشهير " المثل السائر " الذى ظل ابن الأثير يدرسه للناس حتى ذاع صيته فى كل مكان، فتوافد عليه الطلاب من كل فج عميق، يتزودون من فضله، وأدبه، وفنه، فكان له فى الحياة الأدبية صدى عظيم لم يكن

---

(١) المثل السائر ١: ٣٥ – ٣٦، طبعة نهضة مصر.

(٢) الدكتولر أحمد إبراهيم موسى: الصبغ البديعى فى اللغة العربية ٢٥٥ – ٢٥٦.

أقل من صدى شهرته فى الحياة السياسية، والاجتماعية، كما أنه لم يقف طموحه عند دولة القلم، بل أراد أن يشارك دولة السيف، وكان له ما أراد، ثم عكف على ديوان الإنشاء يمارس عمله المحبب وهو الكتابة، ويخلد للأدب والنقد والبلاغة، يعلم المتأدبين أصول الكتابة، ويربى فيهم قواعد البلاغة، وينمى فيهم ملكة الأدب، وعبقرية النقد، وفنونه الجميلة، وظل مشغولا بذلك حتى وافته المنية. ولا شك فى أن استهدافه لهذا الغرض الأدبى، والنقدى، والبلاغى من تأليفه يوجهه بالضرورة إلى الاتجاه الأدبى حتى يستطيع أن يحقق هدفه عند الأدباء وهو أن يعلم المتأدبين إنشاء الأدب والكتابة.

فعوامل الطبع والثقافة والغرض من التأليف هى العوامل الأساسية التى جعلت ابن الأثير يتجه فى تأليفه " البلاغى- النقدى " اتجاها أدبيا، وواضح أن تناوله للبلاغة، وأصول الكتابة الفنية فى ظل هذا الاتجاه الأدبى والفنى هو الذى جعله يتأثر بالأدباء السابقين، ويؤثر فى الأدباء المتأخرين على الطراز الذى تقدم تفصيله فى هذا الموجز وما ذكر فيه من الموضوعات.